واشتعلَ القلبُ شَيبًا

سارة العقاري

عدد الطبعـات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ٠٠٠٠ / ٢٠٢٢

***

إهداء..

الأحـزانُ لا تُهدىٰ.

***

(١)

الرابع من سبتمبر..

محمود، طفلي البكر وولدي الحبيب وابني الأول والأخير، كيف حالك، وماذا عن دراستك؟ لقد اشتقناك بشدة، أمك تبكي غيابك كل يوم، وتتمنى وجودك كل لحظة، وتذكرك بالدعاء ثانية ثانية، عند الطعام لا بدَّ أن تضع نصيبك على المائدة فألتهمه أنا في كل مرة، وعند النوم لا بدَّ أن تلقي نظرة أخيرة على حجرتك آخر كل ليلة، وعند أول شعاع للشمس تجهز فطورًا رائعًا لكنها تبكي لأنك لن تأكل منه، إنها ممسوسة بك يا بني، ولا ألومها على ذلك، فحتى أطفال القرية هنا لا يكفون عن الدعاء لك والسؤال عنك.

لقد ربيتك على الصلاح والحب والإنسانية، فنشأتَ سليم النفس، سوي الفطرة، مُحبًّا للخير، تسعى له من ألف طريق وطريق فأحبك الفقراء والمرضى وكل يتيم.

عذرًا أطلت عليك، أعلم أنك مشغول باختباراتك النهائية، ويا لها من مرحلة طال انتظارها يا بني، بعد أيام ستعود إلى غرفتك الموحشة فيؤنسها حضورك، وسيمتلأ بك البيت الخالي منك، والأهم أنك لن تغادر حضن أمك ثانية لدرجة أنها أقسمت لي بالأمس أنها لن تزوجك أبدًا فضحكنا كثيرًا، بمناسبة الزواج، ألن تخبرني من تكون سعيدة الحظ التي اقتنيت لها خاتمًا ومصحفًا منذ أسبوعين ووعدتني أنه بمجرد إنهائك لآخر اختبار ستخبرنا من تكون لنخطبها لك؟

عُد سريعًا فأمك قد أقامت بسطح المنزل مذبحة، الدجاج والحمام والبط والأوز يشتكي إلى الله صنيعها به، فطعام القاهرة -على حد قولها- لا يمري عليك، وقد أتيت إلينا في إجازتك الماضية بوجه شاحب وجسد هزيل فأقسمت أن تطعمك لحمًا لسبعة أيام متواصلة.

كتبتُ لك هذه الرسالة، لكن لا أعرف كيفية إرسالها إليك لكنني سأحاول، لن أفلتك هذه المرة أبدًا لا بدَّ أن تعلمني كيفية التعامل مع الهاتف فور عودتك، الناس هنا في القرية يقولون والد الطبيب راح والد الطبيب أتى، لكنهم حين يطلبون مني أن أجري لهم اتصالًا بأحد يضحكون من جهلي لدقائق متواصلة، وأصبحُ مُزحة المجالس لشهور.

الجميع هنا يرسل إليك التحيات، ويقدم لك المباركات المسبقة، عمك يحيى وعمك عثمان وعمتك عواطف وكل رجال المصطبة فردًا فردًا، وتحديدًا عمك *محمود المُرضي*، لعلك لا تذكره لكنه يستحلفني بالله أن أذكّرك به، إنه ذات الرجل الذي وصفت له علاجًا فأراحه بعد أن طاف بجميع أطباء المدينة، لكنهم جميعًا فشلوا في علاجه، يومها قلت له أنا بفخر إن ولدي يدرس الطب، سيد فتيان القرية وزينة شباب القصر العيني، إنه يتمرن به بعد أن أصبح ذراع أستاذه الأيمن هناك.

يومها قصصت عليك قصته، وسألت الله أن يجعل شفاءه على يديك، وألَّا يخذلني فيك بعدما تباهيت بك أمام القرية بأكملها، وقد استجاب الله لي.

أمك ترقب حديثنا عنك الآن من النافذة، عُد إليها سريعًا يا محمود، إنها لا تكف عن الدعاء لك أو الشجار من أجلك، نعم، كما توقعت، إنها تدب خناقة كل يوم مع جارتنا عمتك الحاجة *نبيلة*، والدة صديقك المقرب

سامر*، كل واحدة منهن تقسم أن ولدها أفضل من ولد الأخرى، وأنه الأنجح والأرحم، وأن الناس سيأتون * للعلاج عنده من أقصى الأرض، فتتعالى الأصوات، ويحتد النقاش، وتُقسم كل واحدة منهن على قطيعة الأخرى طوال العمر، لكن طوال العمر هذا ينتهي كل صباح عندما تتساءلان بشأنكما هل طمأن أحدكما أمه لتطمأن إحداهن الأخرى؟

وحتى يتم الله نجاحك، نصيحة مني يا قرة عين أبيك، قريتنا قرية مباركة يا محمود، وأهلها أناس طيبون أهلكهم الفقر وهدهم القهر والمرض لكن الله اصطفاكما يا بني، وجعلكما ملائكة للرحمة، فارحموا أهلها، وأسِروا لهم خيرًا حتى يرزقكم الله به.

أزعجتك ثرثرتي الفارغة أليس كذلك؟! من لي غيرك أحدثه يا محمود، لقد طالت غيبتك يا حبيبي، فعجّل بالحضور، أأخبرك سرًا شريطة ألَّا تخبر أمك به، اتفقنا؟

لقد ادخرت لك ثمن البذلة الرمادية الخاصة بحفل تخرجك والتي حدثتني مسبقًا بصعوبة ادخار ثمنها، مفاجأة أليس كذلك؟! لقد باعت أمك نصف طيور الدار قبل أن تقيم مذبحة للنصف الآخر، وصبيحة اليوم سافرتُ أنا وهي إلى المدينة، وابتعناها لك سويًّا، كل ساعة تُخرجها أمك من الخزانة تتأملها لدقائق طوال ثم تعانقها وتزغرد، فأقول لها اعقلي يا امرأة، فترد إن عقلي يوزن بلد مَن له ولدٌ كولدي؟ والله لأزغرد مرة أخرى حتى أُسمِعَ جارتنا *نبيلة*.

كنت أنوى ألَّا أحدثك بأمر البذلة الرمادية، وأن أدخرها لك مفاجأة لكنني لم أصبر على ذلك، بمناسبة البذلة الرمادية لقد ابتعت لنفسي بنشًا أبيضًا يشرفك أمام زملائك، واقتنيت لأمك رداء أسودًا بنقوش خضراء يناسب تمامًا أم الطبيب، أمك لا تكف عن انتقاد البنش الأبيض، تقول لي متهكمة لعلك ذاهب إلى الحج، فأقسم لها أن الله سيكتب لي أجر حجة جزاء لما حرمت نفسي منه كي أوفر لك القرش على القرش حتى تتخرج طبيبًا أد الدنيا بل وأعظم منها.

لقد ابتاع أهل المصطبة الزينة، وعلقوها بشوارع القرية أول أمس، إن أهل القرية يعدون العدة لاستقبالكما، فلا تتأخرا عليهم، بمناسبة القرية يا محمود، لقد أصبحت قريتنا مضرب الأمثال وسيدة القرى، الناس لا تصدق أنها أنجبت طبيبين مرة واحدة، سلامي لسامر وللسيدة الطيبة التي تسكنان ببيتها، قل لها لقد ابتاعت أمي لكِ الجبن والسمن، وعندما علم أهل القرية بأنه لها خصيصًا أقسموا أن يمنحوها ضعفه بالمجان كرامة لمحمود وسامر.

إلى اللقاء يا حبيبي، قبلاتي الكثيرة لسامر وألف عناق لك.

***

الخامسة فجرًا، الخامس والعشرون من سبتمبر...

من المفترض أن اليوم هو يوم عودتك المرتقب منذ سبع سنين، لقد صليت الفجر منذ دقائق بمسجد القرية، وانهالت عليَّ المباركات من كل جانب حتى شعرت وكأنني والد لعريس، أحسن عريس يا حبيبي، الناس هنا تنتظر وصولك أكثر منَّا، أهل البلد يجتمعون كل ليلة للغناء على المصطبة، وتشق زغاريدهم أجواز السماء، الأطفال يغنون كل لحظة *يا حبيبنا يا حبيب يا أطيب وأحسن طبيب.. بالهنا وبالسرور.. بلدنا فيها دكتور* فأعدل من وضع عِمتي، وأنظم شعرات حاجبي وذقني، فأنا والد الدكتور المذكور.

لقد امتلأت الدار بالزوار ليلة أمس، وعمتك عواطف تبيت هنا منذ أسبوعين وقد اقتنت لنا حُصرًا خُضر بستطهم في كل أنحاء الدار، فبدت دارنا وكأنها جنة، هي ووالداتك تعدان الشربات من الآن، والمطبخ يمتلأ بروائح شتى، أبخرة متصاعدة هنا وهناك، لقد صنعت والدتك كل أنواع الطعام حتى بدت وكأنها أبلة فضيلة في زمانها.

الأطفال هنا ينتظرونك أمام الدار، والنساء يتعاقبن في عرض المساعدة على أمك، ثم يطلقون بضع زغاريد من آن لآخر، لا تتأخر، وأخبر سامر أن غداءه عندنا اليوم، فلقد أعددنا وليمة بسيطة بمناسبة تخرجكما.

أعلمُ جيدًا ما تُفكر فيه، لا تحمل هم تكاليفها يا حبيبي، لقمة هنية تكفي مية، والناس هنا عشمانة يا بني، لقد أقسمت لهم أنك ستعالجهم لمدة شهر بالمجان، ورطتك أليس كذلك؟ سامحني يا ننى العين لكن أهل القرية يتصرفون وكأنك ابنهم، هل تصدق أن الحاج *محمود المرضي* قد بارك لنا بـ شاة! لا تصدق أليس كذلك؟ أنا أيضًا لم أكن لأصدق لولا أنني ذبحت الشاة بيدي ليلة أمس، المهم لا تتأخر، وارتدِ البالطو الأبيض وأنت على مشارف المنصورة، سأتركك الآن لقد نذرت لله أن أصلي مئة ركعة يوم عودتك، وقد حان وقت الوفاء بما نذرت.

***

العاشرة صباحًا.. الخامس والعشرون من سبتمبر..

لقد انتهيت للتو من المئة ركعة، الحمد لله الذي وفقني للوفاء بنذر نذرته على نفسي منذ سبع سنين، لذا فأنا أقسمت الآن أن أصلي لله عشرين ركعة أخرى، لكن هناك شيء ما، الجو أصبح خانقًا على حين غرة، والهواء بات ثقيلًا في حلقي، ووجوه الناس من حولي شاحبة، حتى أطفال المصطبة قد توقفوا عن الغناء بغتة، ونساء المطبخ كفوا فجأة عن الزغاريد، وباتت الوشوشة والهمس هما سيدا الموقف، تُرى ما الذي حدث! الرجال ينسحبون من المندرة واحدًا تلو الآخر، وعمك محمود المرضي كفّ عن الحديث مرة واحدة ويجلس بزاوية المكان يبكي بعدما صدعتني ثرثرته في أثناء الصلاة، تُرى ما الذي حل بهم! هل تملكت الغيرة قلوبهم فجأة، أم أنهم أصبحوا يستكثرونك عليَّ؟

لنأجل أمر العشرين ركعة قليلًا حتى أفهم ما الذي يحدث، لكن جميع من هنا آثر الصمت، وشعرت أن في الأمر خطبًا ما وبأن أحدهم يوشك أن يوجه رصاصة إلى قلبي، وأخرجت الهاتف، وارتجفت أصابعي لأول مرة، ورحت أطلبك المرة تلو الأخرى لكنك لم ترد، وتناهت إلى أذني همسات الحاضرين بتصادم سيارتين على الزراعية في حادث أليم، وكان هذا أسوأ ما سمعت في حياتي، ليتني أصبت بالصمم قبل أن أسمع به، ليتني مت أو جننت حتى، ليتني ما أتيت إلى الدنيا أبدًا يا بني.

ولم أجد أمامي سوى البنش الأبيض والذي ادخرته لحفل تخرجك، فارتديته بأصابع مرتجفة على عجل بعد أن سقط من يدي مرتين، وأنا أتوسل إلى الله أن يوقظني من هذا الكابوس الفظيع، لكنني لمحت الناس تبكي، والنساء في المطبخ قد انقلبت زغاريدهن إلى صراخ مريع، ورأيت كؤوس الشربات وكأنها تحولت على المنضدة إلى كؤوس دم، وانطلقتُ مع الرجال حيث الحادث على شرفات المنصورة، أبكي في جزع وقهر وما أدراك ما قهر الرِّجال يا بني.

وأخيرًا وصلت، ولمحت سامر من بعيد وقد غطت الدماء وجهه وجسمه لكنه لا زال حيًّا، فتمنيت من الله أن تكون مثله، واندفعت بين المصابين أفتش عنك لكنك لم تكن منهم، فأصابني الذعر، وتملّكني اضطراب

شديد، وخشيت أن أبحث عنك بين الضحايا فتراجعت لثوان لكن -ودون أن أعي ما يحدث- رحت أبحث بعيني في المكان حتى لمحت جثةً بملابس بيضاء، تملأها الدماء، ملقاة على الأرض، وتمنيت للمرة الأولى مخالفتك لي، وألَّا تكون ارتديت البالطو الأبيض كما طلبت منك، وتقدمت في خطوات بطيئة أستوثق لمن تكون رغم أن كل الصفات كانت تشير إليك، لكنني بقلب الأب المكلوم تعلقت بأمل واهٍ أخير لكنه ظل مجرد أمل لم يتحقق.

وافترشت الأرض إلى جانبك في تهالك، واحتضنتك بين ذراعي فوجدتك لا زلت حيًّا، ورحتُ أقبّلك وأنا أزيل الدماء عن وجهك بقفطاني الأبيض الذي ادخرته لحفل تخرجك، لكنني ولسخرية الدنيا ارتديته في حادث موتك، ولمحتك تنظر إليَّ مبتسمًا في أنين متواصل وأنفاس متحشرجة، وأنت تطلب مني ألَّا أجزع لرحيلك وأن أصبر وأرضى بقدر الله، لطالما علّمتك الصبر والرضا لكن أخبرني الآن يا محمود، كيف للمرء أن يصبر على قدر الله ويرضى به؟ لأنني -والله- لست قادرًا، وطلبت مني أن أبلغ سلامك لأمك، وأستحلفها ألَّا تبكي لأن دموعها تعز عليك، وأن أقبّل لك عمتك عواطف وعمك محمود المرضي وسامر، وأسلمُ على أفراد القرية فردًا فردًا وأطفالها الذين لم يكفوا في الأيام الأخيرة عن الغناء لأجلك والاحتفال بك.

وحاولتَ أن تقول شيئًا أخيرًا يخص صاحبة المصحف والخاتم لكن عينيك زاغت فجأة، وارتجف جسدك بين يدي ثم انقطع الصوت، وصمت الأنين.

بعد ساعة واحدة كنت أعود بك إلى القرية محمولًا على الأعناق، واجتزتُ الشوارع التي عُلقت بها الزينة، واستقرت عيني على بطاقة كتب فيها أهلًا بابن بلدنا الطبيب، وصلنا المنزل، كان الجميع يصرخ مرتاعًا إلَّا أمك كانت تزغرد وسط صريخ الواقفين، ورأيت أطفال المصطبة يبكون قهرًا بعد غنائهم بالأمس، وزينة الشارع تراقبنا من أعلى في خجل وحزن عظيم، وراحت عمتك عواطف تلطم خديها وتشق إسدالها في نواحٍ وقهر.

لم تعد إلى منزلك طبيبًا يا حبيبي، عدت جثة هامدة، وبدلًا من تلقي المباركات لأجل تخرجك أخذنا العزاء فيك، وبدلًا من أن يدفن الابن والده دفنتك أنا وأودعت روحي معك، ألقيت على وجهك الملائكي نظرة أخيرة، وتمنيت أن أرقد إلى جانبك إلى الأبد، من يصدق أنني الآن أدفن سندي وحبيب قلبي وابني البكر الوحيد.

وعدتُ من دونك إلى الدار الحزينة، آه من سخرية الدنيا يا محمود، آه من الأيام التي حرمتني منك، آه من الحفل الذي تحول إلى عزاء، وآه من الشربات الحلو الذي أتجرع مرارته في حلقي، والزغاريد الفَرِحة التي تحولت إلى صراخٍ مُريع.

عمك محمود المرضي يستحلفني كي أبكي، لكنني أردد في ثبات كاذب *مايغلاش على الـ خلقه*، النساء الصارخات يملأن الدار، والرجال الباكين يصبرونني لكن مصيبتي فيك أكبر من كل ألوان الصبر، وأمك لا تكف أبدًا عن الزغاريد فتهيج بكاء الحاضرين، وحجرتك فارغة موحشة إلَّا من تلك الباكية في هستيريا والصارخة في حسرة وألم، إنها *ليلى* أخت سامر وابنة عمتك الحاجة نبيلة، الآن علمت أنها صاحبة المصحف والخاتم.

آه يا محمود، الدنيا تدور من حولي، والظلام قد فرض نفسه على عيني، والهواء حولي بات شحيحًا فلم أعد قادرًا على التنفس، الناس الآن يحملونني، بعضهم يصرخ وبعضهم يلقنني الشهادة، إن صورتك مرتسمة أمام عيني، ولم أعد أميز صوت أمك، أشعر وكأني أسقط في هوة عميقة، الظلام يزداد حلكة أمام عيني،

والأصوات المرتاعة تهدأ حدتها تدريجيًّا، ولا أدري هل أنا بين الأحياء الآن أم أنني أفارقهم، وفجأة انقشع الظلام، ورأيتك تنظر إليَّ من السماء وقد نبتت لك أجنحة، ورأيت نفسي أُرفعُ رويدًا حيث أنت، وطلبت من الله أن يمد لي في هذا الحلم، ولم أعد أدري أهو مجرد حلم أم أنها نهاية حقيقية، لا يهم، ما يهم هو أنني أصعد ببطء حيث أنت حتى أصل إليك، فأعانقك عناقًا قويًّا حتى لا تتسرب أبدًا من بين يدي.

* * *

(٢)

التاسعة والنصف صباحًا..

السادس من أكتوبر...

عزيزي بابا، صباح الخير..

أكتب لك من المدرسة، تحديدًا من فصل رابعة أول، نعم، نعم، أعلم جيدًا ما تفكر فيه، أنت الآن تتساءَل كيف ولمَ أكتب لك من المدرسة وفي هذه الساعة؟ من المفترض أنني منذ ثلاثين دقيقة غارق في يوم دراسي حافل لكن حدث أمر مهم جعلني لا أصبر على الكتابة لك حتى أعود من المدرسة.

اليوم وقبيل أن ينتهي الطابور الصباحي تفاجأت بأن ماستر عبد الحميد -ناظر المدرسة- إن كنت لا تذكره، تحدث حديثًا طويلًا عن حروبنا الطويلة مع الصهاينة، وعن صد العدوان، واسترداد الأرض، وعن الأمن والسَكِينة والسلام، وعن رجال شرفاء يدفعون أرواحهم ثمنًا لهذا حتى لا يفقد بلدنا العزيز شبرًا منه، أو نفقد نحن أمنه وسلامه، بعد دقائق كانوا يمررون علينا صورة لجندي وعلى جانبها معلومات غزيرة عن حرب أكتوبر، خمن لمن تكون الصورة؟

تمامًا كما توقعت، لضابط جيش يحمل بندقية في يدٍ وقنبلة باليد الأخرى، الأتربة والدخان يملآن الجو من حوله أما هو فيملأ العرق جبهته، والدماء تملأ وجهه ووجنتيه ولكنه مع ذلك يهاجم الأعداء بثبات ويقين، ولم أتمالك نفسي، شعرتُ بأنني أتوهم صورتك، وأن شدة اشتياقي لك قد أورثتني طيفًا منك يطاردني في كل زمان ومكان، ولم أكد أفرك عيني للحظة حتى سمعتهم يوجهون تحية لجنودنا على الحدود وعلى رأسهم أنت، واندفعت راكضًا بأقصى قوتي إلى الصورة الكبيرة في أقصى الحوش، واحتضنتها لدقائق طوال وأنا أبكي بكاء أبكى جميع المعلمين.

الجميع هنا يرسلون لك التحيات، ويطلبون منك أن تقبل لهم تراب سيناء الحبيبة، ماستر *عبد الحميد* يقول إنه فخورٌ بك وسعيد لأنه درسك الرياضيات بذات المدرسة منذ أكثر من عشرين عامًا، ومس *عنايات* تبكي وتقول إن هذه هي الأرض التي كلّم الله عليها *موسى*، أما أستاذ * نادر* مدرس اللغة العربية فيخبر زملائي في الصف بعد تهكمهم الطويل على بكائي لأن الرجال لا يبكون -على حد قولهم- بأنني بطل لأنني أحتمل غياب أبي عن بيتنا لشهر كامل وربما أكثر، وعندما تعود لا تمكث معنا أكثر من أيام ثلاث تقريبًا.

متى ستعود يا بابا؟ لقد انقضى على غيابك أكثر من شهر، وأنا لا زلت أنتظر وعدك لي، عندما تعود لا بدَّ أن تصحبني إلى الملاهي، أما الصغيرة *ندى* فستصحبها إلى السينما لتشاهد *شركة المرعبين المحدودة وفيلم السندريلا* كما وعدتها، مس عنايات تتعجل إنهائي للرسالة، تقول إن عندنا دراسة، إنها ترسل تحياتها إليك وإلى الأرض التي تقف عليها، وتخبر أصدقائي بالفصل بأنك الأب المثالي لأنك لا تحميني وحدي وإنما تشارك في حماية كل طفل مصري.

ابنك *مالك*.. قبيل يوم دراسي حافل.

***

الرابع من نوفمبر...

بابا العزيز، كيف حالك؟ إنني أفتقدك بشدة، البيت هنا موحش من دونك، الطعام الذي نحبه يصبح بلا طعم لأننا وحدنا من يأكله، والبيت مهما امتلأ بأنواره مظلم لأنه يخلو منك.

جدتي لا تمل البكاء لأجل غيابك كل ليلة، وأمي لا تمل الدعاء لك كل صلاة، متى ستعود يا بابا؟ لا بدَّ أن تأتي سريعًا لتنتقم لي من صديقي *سيف*، لقد تشاجرتُ معه شجارًا عنيفًا صباح اليوم عندما نعتني باليتيم لأن جميع آباء التلاميذ تم استدعاؤهم لحضور مجلس الآباء الخاص بالمدرسة، أب واحد تخلف عن الحضور رغم أنه لا زال على قيد الحياة، لماذا لم تأتِ يا بابا؟ لقد أرسلت إليك رسالة بالأمس، وطلبت حضورك على وجه السرعة، وتخيلت بأنك ستفاجئني بالحضور، وتخذل توقعات اللعين *سيف* لكنك لم تخذل توقعات أحدٍ سواي، لا بدَّ أن تعود سريعًا وتترك *سيف* وأسرته فريسة للإرهاب لأنه أقسم اليوم أمام زملائي بالصف أن والده خيرٌ منك لأنه طبيب يعالج المرضى، ويخفف من آلامهم، فقلت له إن بابا خير منه لأنه يحمي الأصحاء والمرضى سواء، وإن كان أبوك يمنعهم من الألم لدقائق فأبي يمنعهم من الخوف طوال الحياة، وإن كان والدك يبذل وقته وجهده من أجل ذلك فإن أبي يبذل روحه.

الخامس من نوفمبر...

مرحبًا يا بابا، لقد أنهيت اليوم اختبار الرياضيات بتقدير ممتاز، لم أكن لأحب الرياضيات مطلقًا لكن ماستر عبد الحميد قال لي ذات مرة * كان والدك خوارزمي الرياضيات في المدرسة.. فكن خير خلف لخير سلف*، فسعيت جاهدًا لتحقيق ما يقول، أنا أحبك يا بابا، وأرغب أن أشبهك في كل أمر باستثناء أمر واحد لا أرغب أبدًا به، فأنا لا أريد أن أكون ضابطًا مثلك حتى لا يُحرَم أبنائي مني، وحتى لا يقهرهم بُعدي عنهم ذات يوم، وحتى لا يصابون باليتم وأبوهم على قيد الحياة.

وحتى لا أنسى ككل مرة، فأنا أطمئنك على زهور الشرفة، إنني أتعهدها بالسقيا وبالرعاية التامة، وأمنح أكثر جهدي للورد الأبيض لأنني أعلم مدى حبك له، أما العصافير فترعاها *ندى* لأنها تحبها ولأنك أوصيتها عليها ذات مرة فبدوتَ وكأنك منحت صك رعايتها لندى، كل شيء هنا بخير والصورة هنا بديعة، لا ينقصها شيئًا سوى أن تتزين بك.

ابنكَ مالك..

من قلب الشرفة وفي أثناء سقيا الزرع، العصافير تزقزق على غير العادة، أظنها تستحلفك ألَّا تتأخر، وترسل أشواقها أيضًا إليك.

بابا العزيز، لقد اصطحبتنا المدرسة في رحلة دراسية اليوم إلى أهرامات الجيزة وقلعة *محمد علي*، كل طالب اصطحب أباه معه، طالب واحد كان وحيدًا بلا أب، نعم إنه أنا، بعد ساعتين من الرؤية والتفحص أدخلونا إلى متحف أكتوبر بالقلعة، فشعرت أن بيني وبين تماثيل الجنود قرابة، ولا أقصد أنك تمثال -حاشا لله- لكنني من فرط شوقي إليك إذا رأيت أي جندي شعرت بحاجة ملحة لاحتضانه، ووددت لو سألته كيف حال الحدود، وماذا عن بقية جنودنا هناك؟ متى سنراك يا بابا؟ لقد أوحشتنا، تيتة وندى وماما يسلمون عليك.

***

الخامس عشر من نوفمبر...

بابا العزيز، أفضل رجال الأرض وخير آباء العالم، كيف حالك وكيف حال أقرانك؟ لعلكم جميعًا بخير إن شاء الله، لماذا لم تطمئنا عليك؟ سمعت أن الإرهاب الغاشم يدمر الأمكنة بالقرب منك، وبأن كثيرًا من جنودنا ضحايا أو جرحى، الأجواء هنا خانقة، الجميع خائف أو مترقب، وكل القلوب قلقة متوترة، كلما دخلت غرفة جدتي وجدتها على سجادتها تبكي، وماما قد امتنعت عن الطعام منذ يومين، الأقارب يزورون منزلنا من آن لآخر، زائر وحيد تأخر في الحضور يا بابا، إنه أنت.

ماستر عبد الحميد طلب من التلاميذ قبيل انتهاء الطابور الصباحي أن تدعو لجنودنا على الحدود فالحرب قائمة هناك، وإمام المسجد بات يدعو لكم عقب كل صلاة، أما خطيب الجمعة فقد كانت خطبته عنكم ظهر الأمس، الجميع هنا يبكي أما أنا فلا، لأن الرجال لا يبكون أبدًا، سامحني يا بابا، لا أطيق الكذب عليك، إنني صامد أمام الجميع لكنني أبكي خلسة في غرفتي كل ليلة.

***

الثامنة والنصف صباحًا.. السابع عشر من نوفمبر...

أنا قلق يا بابا، لم أنم منذ يومين، يقولون إن الإرهاب الغاشم يحصد أرواح جنودنا على الحدود، جنازة عسكرية تتلوها أخرى، وتأبين مؤسف يتبعه آخر، والتلفزيون المصري أعلن الحداد التام أول أمس.

صديقي *سيف* يبكي في أثناء تقديمه للإذاعة المدرسية، ويقول إنك خير آباء الأرض، خير من المهندس والمعلم والطبيب، ويعتذر مني أمام المدرسة كلها، ويرجوني أن أقبل اعتذاره، للمرة الثانية أبكي في طابور الصباح يا بابا، لكن هذه المرة لم يسخر مني أحد، الجميع يبكي معي، ويشد على كتفي، وصديقي سيف يطلب من زملائي بالصف أن نصلي صلاة الحاجة حتى يردك الله لنا سالمًا.

الزهور البيضاء مستمرة في التزايد والنمو، وعصافير الشرفة لا تكف أبدًا عن الزقزقة، تيتة هي من تطعمها الآن لأن ندى راقدة في الفراش منذ يومين، ندى لا تكف عن السؤال عنك يا بابا، وأصابع تيتة المرتجفة لا تمل عن رقيتها، مس عنايات زارتنا الليلة لتطمئن على ندى، ماما ظلت تبكي طوال الجلسة، الأقارب الموجودون لم يفلحوا في طمأنتها، ألم يحن الوقت لتطمئننا بنفسك يا بابا؟!

***

السادسة صباحًا.. الثاني والعشرون من نوفمبر...

لقد استيقظت على خبر مفزع يا بابا، ليتني مت قبل أن أسمعه، ليتني لم أستيقظ أبدًا، صوت الصراخ جعلني أقفز من فراشي إلى غرفة المعيشة في خطوة واحدة، قرأت على شاشة التلفاز أن موقع *خير أجناد الأرض* بسيناء الحبيبة دمره الكلاب الأنجاس تدميرًا كاملًا، ليتني أصبت بالعمى قبل أن أقرأ الخبر، ليتني ما تعلمت القراءة أبدًا، إنه موقعك يا حبيبي، الآن لا أدري هل نجوت أم أن يدَ التدمير قد طالتك، نشرة

الأخبار تعرض صورة لعمو عصام وقد فصلت رأسه عن جسده، تيتة تصرخ وتقول *يا حبة عيني.. رفيق ابني وذراعه اليمين* وماما فقدت وعيها، أما ندى فقد تداخل صريخها مع صريخ نساء البيت.

بابا، عظم الله أجرك في عمو عصام وبقية زملائك، أنت بطل، بالتأكيد دافعت عنهم حتى كدت أن تموت معهم، لكن القدر أبى إلّا أن تحكي لنا حكاياتهم، إنني أعلم حبك لهم، وتعلقك بموقعك وجنودك لكنهم سبقونا إلى الجنة إن شاء الله، الناس هنا يتوقعون أنك ذهبت إلى الجنة معهم، أما أنا فأخبرهم أن أبي لا يخلف وعده أبدًا، وقد وعدني أبي بالعودة من أجل الذهاب إلى السينما والملاهي أو الجلوس في الشرفة لقضاء أوقات كثيرة حلوة، ولعيش لحظات جميلة حُرِمنا عنوة من عيشها مسبقًا لظروف عمله.

إنني أبكي يا بابا، منذ أن قرأت الخبر أبكي حتى كدتُ أن أتقيأ قلبي وأن تفنى روحي، سامحني يا بابا، الرجال يبكون عادي حتى لا يموتون قهرًا، ماستر عبد الحميد يبكي أيضًا، ويتحسس رأسي، ويطلب مني أن أصمد، البيت ممتلئ بالأقارب عن آخره، والجيران بالأسفل يملؤون الشارع، وأنا أتوهم حضورك كل لحظة، اقطع الشك باليقين وعد من أجل كل هؤلاء، من أجلي يا بابا، فقلبي الصغير أرقُّ من أن يحمل بداخله كل هذا الرعب والقلق.

آآآآآآآه، عزيزي الشهيد بابا، مقدم نشرة الأخبار يعلنك من الشهداء الآن، الصراخ يختلط بالزغاريد، والرجال هنا يبكون كلهم بلا استثناء، وأنا أقف مشدوهًا كالتمثال يرقب ما يحدث دون أن يعي ما هو، الجميع يقول لي ابكِ يا بني، لكن الرجال لا يبكون يا بابا، الرجال فقط يأخذون بالثأر، وأنا أقسم أنني يومًا ما سأثأرُ لك، تمنيت مسبقًا أن أشبهك في كل شيء باستثناء أن أكون ضابطًا حتى لا يُحرم أطفالي من أبيهم الشهيد، لكنني الآن أقسم أن أصبح ضابطًا حتى أنتقم لكل أطفال الشهداء.

الزهور البيضاء لن تذبل أبدًا يا بابا، وعصافير الشرفة في عنقي منذ الآن وندى وتيتة وماما قد تركت لهن رجلًا لن يخذل أباه الشهيد أبدًا، قدمي لن تعرف طريق الملاهي منذ الآن لأنها لن تجمعنا معًا، ودور السينما قد علمتُ من سيصحب ندى دائمًا إليها، مس عنايات تقول إنك ستنظر إلينا دائمًا من السماء، وأعدك كلما نظرت أن تجد ما يطمئنك ويسرك، ماستر عبد الحميد أطلق اسمك على المدرسة، أما ماستر نادر -معلم اللغة العربية- فقد شرع بتحفيظي القرآن الكريم برًا بك، وحتى ألبسك تاج الوقار يوم القيامة، وصديقي سيف يحبني جدًّا، ولم يعد يناديني إلَّا بأخي، إنه يقول إن الشهيد يشفع في سبعين من أهله، وهو يأمل أن تشفع له، أفتقدك يا بابا، عِدني أن تزورني في الأحلام كل ليلة لكن لا تخلف وعدك هذه المرة، أما أنا فأعدك أنني لن أكف أبدًا عن الكتابة إليك.

ابنك الشهيد مثلك إن شاء الله.. *مالك*.

* * *

(٣)

العاشرة مساءً.. الثامن من نوفمبر..

مساء الخير..

حسام عبد الصبور*، نعم كما تبادر إلى ذهنك تمامًا، الأول على الجمهورية منذ خمسة أعوام، شاب خلوق * يحفظ القرآن الكريم كاملًا عن ظهر قلب، وسيم الوجه، قوي البنية، يحبه أهل الحي وينعتونه دائمًا بالوسيم، يحب الخير لمن حوله فبادله الجميع حبًا بحب، ويتعامل بإنسانية مفرطة فبات معروفًا عند كل فقير أو مظلوم أو مريض، لم يسعَ أبدًا لإيذاء أحد لكن الكون كله تآمر على إيذائه، يحب الخير للعالم أجمع لكن العالم أجمع على الفتك به.

عذرًا، أزعجتكم بالحديث عن نفسي لكن لا قدرة لي الآن أمام القلم، إن أفكاري تدفق بغزارة، ولا أكاد ألحق بها وعقارب الساعة تداهمني وكأنها تستكثر عليَّ أن أقتنص منها بعض الوقت لأحكي لكم من أنا، وبرغم كل هذا الجهد لا أدري إن كان أحد سيقرأ ما أكتبه أم أن كلماتي هذه سَتُدفنَ في جيبي بعد ساعات!

لا أدري لمن يفترض أن أكتب الآن، لكنني أتمنى أن يمنحني الوقت فرصة أخيرة أكتب فيها لجميع من أحبهم واحدًا واحدًا، وأن يغدق عليَّ القدر رحمته فتصل رسائلي لأصحابها.

القصة بدأت منذ عامين، عندما اقتحم الرجال الهائجون بيتنا بعد منتصف الليل، فدمروا جميع ما به، وعندما ذهبت إلى فراشي أحتضن* أروى* أختي فاحتلني كابوس مرعب لم أتيقظ منه حتى هذه اللحظة، صفعات مدوية على وجهي، وركلات هنا وهناك، ودماء غزيرة تحجب الرؤية عن عيني، فلم أعد أرى كما يجب، وأحدهم يمسك بمعصمي يكاد يسحقه بين يديه، فأصرخ كما لم أصرخ من قبل.

أبي واقف مذهول لا يكاد يدرك مما حوله شيئًا، وأختي الصغيرة تداخل صريخها مع صراخ أمي الذي ارتفع يشق السماء في فزع وولولة، وأنا أحاول جاهدًا أن أفيق من الكابوس لكن من حولي يخبرونني بأنه واقع فأعجز عن الإفاقة منه.

وصلة طويلة من العذاب، وأيام مريرة أقسى من الموت، ودماء مُهدرة بلا ذنب تملأ كل مكان، وأسئلة لا أفهم منها شيئًا، وأسماء لا أعي مَن أصحابها، واعترافات أرددها بشفتي خوفًا من الكهرباء التي تصعق جسدي ذرة ذرة، وليالٍ سوداء طويلة لا تنتهي أبدًا، وأعوام مهدرة في الزنازين بلا ذنب أو جريمة حقيقية.

كان من المفترض أن أكون طبيبًا الآن، شاب محترم من أسرة محترمة، يسعى جادًا للزواج ولإنشاء عيادة خاصة به لكنه في الواقع *حسام عبد الصبور*، شاب إرهابي متهم بالعديد من جرائم القتل التي أقرها على نفسه، محكوم عليه بالإعدام، يعاني مؤخرًا من الزهايمر المؤقت، وتليف بالكبد والشلل الرعاش.

السجن جامعة النبلاء -ولا أدعي بأنني رجل نبيل لكنني لم أكُ أستحق السجن على كل حال-.. ومقبرة * الأحياء*، كما قال يوسف الصديق عليه السلام، لكنني أقسم بأن الموت بكل قسوته أرحم مما أنا فيه، والقبر بكل ظلمته أرحم من زنزانتي الضيقة، والموت الحقيقي بكل فزعي وخوفي منه أرحم من موتي وأنا على

قيد الحياة، فلم أعد أدري هل أنا ميت أم حي، فلا أنا حي تمامًا فأمارس حياتي مع الأحياء، ولا أنا ميتُ فأستريح من عذابهم.

أكتب الآن من داخل زنزانتي، المكان الوحيد الذي احتواني يوم أن رفضني العالم، والجماد الذي رق لحالي فتصدعت جدرانه لأجلي، والأرض التي تشربت بدمائي فشعرت أن بيني وبينها قرابةً ما.

أذكر رفضي لعناق أمي يوم إنهائي المرحلة الثانوية بتقدير دراسي ساحق لأنني شاب يكره إفشاء مشاعره، ويخجله العناق رغم حاجته الماسة -أحيانًا- إليه، وأذكر رغبتي العارمة لعناقها مذ وطئت بقدمي هذا السجن لكن القفص الحديدي يحول بيني وبينها في كل مرة، أذكر حديثها الدائم مسبقًا عن فخرها بي، وأذكر انهيارها وتبرأها مني يوم اعترافي كذبًا تحت وطأة التعذيب.

تمنيت لو منحتني الظروف فرصة واحدة لشرح ما مررت به، ولو أكرمتني الحياة مرة فساقتها في زيارة أخيرة إلى محبسي، وددت إخبارها بأنه لو ذاق أحد ربع ما ذقته أنا لاعترف بذبحه ليحيى وبصلبه لعيسى وبعقره لناقة صالح، وددت إخبارها بأن الحياة ليست عادلة لكن عزائي أنني سأغادرها بعد ساعات، وكل ألم تجرعته هنا لن ينجيني من وجعه إلَّا الموت، صدقيني يا أمي، لم أشأ أن أرحل وأترك لك شابًا مجرمًا وذكرى أليمة يعيرك الناس بها طوال العمر، لكن الدنيا استكثرت عليَّ العيش فيها مطمئنًا أو حتى الرحيل منها بسلام.

كتبت لكم مرارًا أشرح ما دفعني لما قلت لكنني لم أتلقَ أي رد، وأسرفت في إرسال الرسائل لكن لم يرد على رسائلي أحدٌ أبدًا، فشعرت بالخيبة، واحتلني الخذلان والقهر، كل العالم خذلني حتى من كنت أقسم على استحالة خذلانهم لي، وكل الأحباب مزقوا قلبي رغم أنني ملّكتهم مسبقًا هذا القلب، هذه رسالتي الأخيرة فسامحيني.

يا ماما، لا أريد أن ألقى الله وأنتِ غاضبة عليَّ، يا أمي، ضاع شبابي، وخسرت الدنيا، وآمل ألَّا أخسر الآخرة، فترفقي بي.

بابا العزيز، لماذا لم تزرني أو حتى تكتب لي، هل أغضبك ما فعلت؟ معك حق، أنا نفسي أغضبني ما فعلت يا بابا، الموت مرة واحدةً أهون من الموت في كل ساعة ولحظة، وتصميمي على براءتي لن يفيد لأنهم قد حكموا مسبقًا عليّ، في لقائنا الأخير قلت لي *لمَ سودت وجهي ووضعت رأسي في التراب؟* فبكيتُ، حلمت كثيرًا أن أرفع هذا الرأس يا بابا، وسعيت لذلك فحفظت القرآن الكريم، وتغنيت به، والتهمت دروسي فصرت فتى الجمهورية الأول، وأصلحت من خلقي فصرت شاب الحي الخلوق، فعلت كل ما بوسعي لأرفع هذا الرأس لكن سحقته الأحذية رغمًا عني، وفعلت كل ما ليس بوسعي لكن كان للقدر رأي آخر.

يا أبي، دعوت الله كثيرًا أن يسوقك لي لكنك لم تأتِ، وطلبت منه مرارًا أن أراكم قبل أن أموت لكنه قدّر شيئًا آخر، أحبك ولا أطلب مسامحتك لأنني أعلم جيدًا أنك سامحتني رغم قطيعتك لي.

الصغيرة أروى، ابنتي الأولى وفتاتي المدللة وأختي الوحيدة، كان من المفترض أننا معًا الآن نلتهم الشوكولا التي جلبتها لك عند عودتي مساءً من الجامعة كالعادة، كان من المفترض أنني أركض وراءك، وأحملك على ظهري لأبيع العسل، أو أشرح لك مسائل الرياضيات الصعبة فتقسمين لي أنني أفضل من أستاذ الرياضيات نفسه، رغبت أن أموت وأترك لك سيرة حسنة لكن شاء القدر أن يجعل من أخيك إرهابي مجرم، وحلمت

قديمًا أن أزفك عروسًا إلى زوجك لكن شاء القدر أن تزفيني غدًا شهيدًا إلى قبري، سامحيني يا أروى، واغفري ما صنعته بك رغمًا عني، وما سيصنعه المجتمع بك عندما تكبرين فيقول الناس عنك أخت القاتل.

لقد خذلني الجميع سواكِ، وآذاني كل من عرفت إلَّا أنتِ، أذكر صريخك بقاعة المحكمة يوم إعلان الحكم، وتشبثك التام بي حتى مزق الشد ملابسي وأدمى أصابعك، وأخبرك بأن صوتك الباكي بـ *لا تقتلوه فتقتلوني معه* لا زال يتردد في أذني حتى الآن، وأطمئنكِ بأن رسالتك اليتيمة والتي وضعتيها بجيبي يومها ستصحبني غدًا إلى قبري لأن بها شيء منك.

بَعُد الشر عنك يا حبيبتي، لا أتمنى لك حياة كحياتي ولا نهاية كنهايتي، لا أتمنى لأي أحد المرور بما مررت به أو الخروج من الحياة كما سأخرج منها بعد ساعات، الصديق والعدو الشامت والحزين، من سيبكي لأجلي غدًا، ومن سيضحك ملء قلبه.

لم يبقَ سوى سويعاتٍ وينتهي عمري، لو تدرون حجم الأمنيات التي زرعتها بجوفي قبل أن أصل إلى هذه اللحظة لما بخلتم عليَّ بلقاء أخير، ولو أدركتم ما عانيته هنا لبكيتم لأجلي حتى تتفتت أكبادكم، ظننت بأنني سأخطو نحو الموت رافعًا هامتي لأن أبي قبلها منذ دقائق، ومتيقنًا من دخولي الجنة لأن أمي سامحتني قبيل أن أموت، ومطمئنًا إلى الأبد لأن الصغيرة أروى عانقتني وتضحك لي.

أمي الطيبة رغم صدها عني، وأبي الطيب رغم قسوته في لقائنا الأخير، وأروى الحبيبة والابنة والصديقة، أخبرني السجان منذ دقائق أن كل شيء سينتهي غدًا، وطلب مني أمنية أخيرة، فاستعصت عليَّ الأماني كلها، ولم يسعفني هول الموقف للتفكير فيما أريد، أو حتى في تذكر أمنية واحدة، فبكيت لأن وجودكم إلى جانبي قبيل موتي أصبح مجرد أمنية!

إني ذاهب إلى الله، ومتكفلٌ هو بكافة أمانيَّ فلا تحزنوا، لكن لي رجاء وحيد عندما يصلكم جثماني غدًا فضلا قبلوه وعانقوه، اشتقت لأحضانكم الثلاثة، ودعوت الله كثيرًا أن أعانقكم قبل موتي لكنه حرمني لقاء الوادع في حياتي، وأسأله راجيًا ألَّا يحرمني منه قبل الدفن وبعد مماتي.

سلام من الله عليكم أهل البيت ورحمة وبركات.

***

ملاحظة:

سأضع الرسالة في جيب سترتي الأيمن، أتمنى أن تتعثروا بها فأمضي إلى الله هادئ البال، غير مثقل - بغضبكم مني وقسوتكم عليَّ، نلتقي هناك في جناتٍ ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ابنكم الراحل بعد ساعات.. حسام.

***

العاشر من نوفمبر السابعة وعشرة دقائق صباحًا..

الزنزانة مغلقة تحتوى على جسد بلا رأس، وعنق تتناثر الدماء منه، ورسالة تطايرت في أقصى الغرفة مثخنةٌ بالدماء فاختلط حبرها الأزرق بدم كاتبها الأحمر القرمزي، وورقة بيضاء يحملها حارس الزنزانة بعدما استحلفته فتاة صغيرة تدعى *أروى* بإيصالها لأخيها حسام لكنها للأسف لم تصل!

* * *

(٤)

إلى كل محاربي السرطان في العالم..

مرحبًا، كيف حالكم؟ لعلكم جميعًا بخير، انضمت لعائلتكم فتاة جديدة، لا أدري ماذا يُفترض أن أكتب في رسالتي لكنني أعلم أنكم تفهمون جيدًا ما في خاطري لأنكم بالتأكيد مررتم مسبقًا به، وما بين إنكار الواقع وصدمة الخبر الأولى أتوهم الآن أنني في حلم فتقف الكلمات على لساني عاجزة عن التعبير عما أرغب حقًّا به.

هذه أنا، صديقتكم الجديدة *سلمى*، آملة أن تكونوا جميعًا بخير وأنا كذلك، آملة أن يرحمنا الله وأن يمن علينا كلنا بالشفاء العاجل والأجر الثابت إن شاء الله.

أووووه.. الله، من هو الله؟!

***

السابع من مارس.. الثالثة صباحًا.

صباح الخير، مرحبًا يا شيخ كيف حالك؟ هذه أنا *سلمى*، جارتك القديمة بحي الصحفيين، لا أدري إن كنت تذكرني أم لا لكنني أظنك لا زلت، فبالتأكيد تدعو عليَّ حتى الآن.

نعم، فأنا من تسببت بحبسك ستة أشهر، وبعزلك تمامًا عن الخطبة والإمامة يوم أن أجريت بلاغًا طويلًا ضدك هدفه التنكيل بك وبكل ما هو إسلامي المظهر محمدي السمت، إنني أمقتُ اللحى، وأكره الحجاب، وأرى أننا لن نتقدم خطوة واحدة إلى الأمام وبيننا متدين واحد، يومها اتهمتك اتهامات كثيرة باطلة لأن أذانك يزعجني، وخطبتك تُثير في نفسي الرعب والخوف من مصيري المجهول بعد الموت فقررت إبعادك عني، وإرسالك أنت وخطبك إلى جحيم الدنيا حتى لا تفزعني أنت كل لحظة بجحيم الآخرة.

لا أدري لماذا أكتب لك الآن، لكنني مذ أن علمت بإصابتي بمرض لا يرجى الشفاء منه وصورتك لا تغادر مخيلتي، وظلمي لك يطاردني في كل لحظة وثانية، ربما أموت اليوم أو غدًا أو ربما يَمدُ الله لي العذاب فيميتني بعد عام أو عامين، عمومًا لا أحب أن ألقاه أبدًا ومظلمتك في عنقي، فهلا غفرت لي؟!

منذ سويعات كانت الحياة خضراء من حولي، والدنيا تقبل عليّ إقبال الملوك عليها، لا يخفيني شيء، ولا يؤرق خاطري أمر، وفي لحظة واحدة انقلب النعيم إلى شقاء، والسعة إلى ضيق، والعمر الطويل إلى أيام قصيرة محفوفة بالألم الحارق والوجع الذي لا مفر منه.

سلامي لك، ولطفلك *عبد الرحمن* الذي ظل بكاؤه يصم أذني لستة أشهر حتى خرجتَ إليه، ولزوجتك الطيبة التي أنقذتني ذات ليلة من حريق بشقتي رغم كل ما كان بيننا، ورغم نفوري منها وعدائي المُعلن لها، ورغم تسببي ظلمًا في تفكيك الأسرة وتفتيت الشمل، لا أدري ماذا أقول وبأي كلمات يجب أن أعتذر لكن هلا سامحتموني جميعًا حتى يغفر الله لي؟

سلمى*.. الثالثة والنصف صباحًا، مشفى ٥٧٣٥٧.*

عزيزتي* ماما*، السلام عليكِ، هذه أنا، سلمى ابنتك التي أحبتك كما لم تحب أحدًا في حياتها والتي آذتكِ أيضًا كما لم تؤذِ أحدًا في حياتها، كنت مراهقة متهورة لا أستمع لنصيحة، ولا أستجيب لأمر، أحب الحياة، وأحب نفسي، فلم أرَ شيئًا بعدهما يستحق الحب، أذكر محاولاتك الجادة في إصلاحي، وسعيك الدؤوب كي أشبهك، وها أنا رغمًا عني أتحول إلى نسخة منك لكنكِ وللأسف لستِ هنا لتقيّمي هذا الشبه.

رحلتي مبكرًا فتركتِني أتجرع مرارة الوحدة وحدي، أغضبتك مرة فذهبتي دون وداع وكأنك تعلنين غضبك عليَّ طوال العمر، قررت اليوم زيارة قبرك لكن الأطباء حالوا بيني وبين ذلك، يقولون إن حالتي لا تسمح.

نعم، فأنا مريضة جدًّا، ولا أدري متى سينقضي العمر لكنني لا أريده أن ينقضي وأنتِ غاضبة عليَّ يا ماما، هل أنت حقًّا غاضبة عليَّ؟

ماما، لقد صليت اليوم لأول مرة منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، ولا أدري كيف حرمت نفسي كل هذه السكينة طوال هذا العمر المنصرم، ولماذا كنت أتعمد البعد عن الله كلما حاولتِ تقريبي إليه، أعلم جيدًا أن سعادتك لا تضاهيها سعادة أخرى اليوم، وأنه لو أمد الله في عمرك حتى تشهدين صلاتي لأطعمتِ عشرة مساكين حمدًا لله الذي وفقني لهذا، واستجابة لنذرِ كنتِ قد نذرته على نفسك ذات يوم.

يا ماما، لقد قمت اليوم نيابةً عنك بإرسال الطعام إلى عشرة مساكين، فهلا سامحتِني؟! -

سلمى* ابنتك.. الخامسة والنصف صباحًا.*

عزيزتي ماما الحاجة زينب، حبيبة أمي ورفيقة دراستها، عملي الصالح في هذه الدنيا وتصرفي الطيب - الذي وفقني الله إليه، لعلك بخير، هذه أنا، *سلمى* ابنة صديقتك القديمة *سعاد*، ذات يوم علمت من أمي أن حادثًا أليمًا تسبب في بتر إحدى ساقيكِ، وأصيبت الساق الأخرى بالشلل التام، كانت أمي تحبك حبًّا خالصًا، ويبدو أنني ورثته منها، فكما لم تقصر هي أبدًا في رعايتك أو الاعتناء بك، لم أقصر أنا أيضًا.

بعد وفاتها ودون وعي مني وجدتني أكمل ما بدأته هي، أدعوكِ باستمرار، وأجلب إليك كل ما تحتاجينه دون حتى أن تطلبيه، وأعهد برعايتك إلى إحدى السيدات متكفلة بكامل أجرها كما كانت تفعل أمي رحمها الله، إنني في كرب شديد، وأبحث عن أعمالي الصالحة حتى أتقرب إلى الله بها، فما وجدت غير هذا العمل، فالحمد لله الذي وفقني ذات يوم إليه.

كيف حالك، وماذا عن احتياجاتك، من قضاها لك خلال الأيام الماضية؟ أعتذر عن غيابي عنك كل هذه الأيام لكن كما قلتُ إنني في كرب شديد، فاسألي الله لي الرحمة والسلام.

ابنتك *سلمى*.

ملحوظة.. أنتِ عندي كما كنتِ دائمًا لا تحملي همًّا ولا تقلقي أبدًا.

***

الثامن عشر من أكتوبر.. الرابعة فجرًا..-

أعزائي الأصحاء خارج المشفى..

أحبكم، وأتمنى أن تكونوا جميعًا بخير، وأدعو الله ألَّا يكتب على أقداركم ما أحاط قدري به، أكتب إليكم لأنني هنا وحدي، ولا أحد عندي يمكنني أن أتحدث إليه، وأنا كما تعلمون بحاجة ماسة لمن يشاركني مخاوفي ثم يربت على كتفي ويشد على يدي.

للتو خرج ملك الموت من الغرفة المقابلة لغرفتي، إنني عرفته وشعرت به، طاف حولي، وأخذ ما أراد ثم مضى، وسيعود ربما من أجلي، وربما من أجل رفاقي الآخرين، لا أعرف متى سيعود تحديدًا لكنني عمومًا أشم رائحته، وأحس به.

إنه الموت، دخل إلى غرفة *إيناس* سريعًا متسللًا وكأنه يخاف أن يراه أحد، اقترب من الفراش، لم يعبأ بكل الأسلاك التي تمددت على ذلك الجسد النحيل، أخذ حياة الفتاة، وانطلق، لتعلن تلك الأسلاك أن المشوار قد انتهى، مع أنه لم يبدأ بعد.

فتاة في الخامسة والعشرين من العمر تمضي دون أن تحقق من أحلامها حلمًا واحدًا بالرغم من أنها حدثتني عنها أول أمس، وبالرغم من أننا تعاهدنا أن نهزم المرض سويًّا، وأن نحقق الأحلام معًا.

في كل ليلة كان يخيل لي أن ملك الموت قد تربع فوق المشفى، وأنه آتٍ ليأخذ كل الحيوات بيديه، حياة بعد حياة، وليقطف زهرة تلو الأخرى، لم يكن ليهتم بالعمر، فطفل في السنتين كشيخ في الستين، كلهم سيمضون، حتى أنه في يوم من الأيام حصد أرواح عشرة منهم، تخيلوا عشرة دفعة واحدة، أحدهم لم يتحمل ألم المرض فألقى بنفسه من غرفته في الطابق الخامس إلى الأرض.

اليوم أكملت هنا ثمانية أشهر وبضع أسابيع، يستعجلونني الآن، يقولون بأنه جاء لأجلي ضيوف..! -

ضيوف..!

في البداية زارني أصدقائي بالجامعة لمرة واحدة أو مرتين ثم شعرت وكأنني تحولت لعبء يثقلهم فكفيتهم مشقة المجيء، وطلبت منهم عدم الحضور ثانية وكلي أمل ألَّا يستجيبوا لما طلبت لكنهم وللأسف استجابوا!

تُرى هل تذكرني أحدٌ فعلًا، أم هناك خطأ غير مقصود والزوار ليسوا لأجلي؟ بل جاءوا لأجل آخرين، لكن انظروا! هناك طفل صغير يقتحم باب الغرفة، ويلصق على جدارها لوحةً عريضة كُتب عليها *ولا تيأسوا من روح الله.. إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون*.. طفل لطيف الوجه ملائكي الملامح، يقترب مني، ويعانقني في مودة وحب، أذكر أنني رأيته من قبل، وأحس بأنني أعرفه.. أووووه إنه هو أيعقل؟..*عـبـد الرحـــــمـــن!*

نعم، ابن إمام مسجدنا القديم، عناق آخر أطول يا حبيبي، لماذا أتيت إلى هنا وأين أبوك وأمك؟

رحلت *إيناس* صديقتي في الغرفة المجاورة فورثني رحيلها قهرًا وإحباطًا ويأسًا، لكن بعد سويعات أرسل الله لي ملاكًا صغيرًا ليذكرني بأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

أسرة جديدة مَنَّ الله عليّ بها، وأناس طيبون يحسنون إلي رغم أنني أسأتُ إليهم، ودعمًا هائلًا كنت في حاجة إليه فأرسله لي اللطيف الخبير على وجه السرعة.

فكانوا دائمًا معي إما أن يدفعونني للأمام وإما أن يشاطرونني الألم، فتحول وجودهم إلى جانبي فجأة إلى جزء من علاجي.

في هذا المرض تعلمت الكثير، تعلمت أن أحبابك قد يخذلونك فردًا فردًا، وبأن من تحسبهم أعداءك قد يصبحون أفضل هدايا القدر إليك، تعلمت أن الله رحيم، وأنه يحبنا حتى حين نكره أنفسنا، ويرحمنا حتى عندما نقسو نحن على أرواحنا.

في هذا المرض شعرت بتدفق إيماني يسري في عروقي مع كل جرعة كيماوي تسري بها، شعرت بأن الله معي إذ إنه عندما خذلني كل العالم عز عليه أمري، فأرسل إليّ أسرة طيبة تقف إلى جانبي وتعتني بي، يدٌ من السماء تحرسني وأيادٍ صغيرة من الأرض تدعمني وتصفق لي، شعرت بالله حقيقة لا وهمًا، شعرت بقربه مني ومعيته لي، أحسست به يكلمني ويحسن إليّ، أرسل إليّ الابتلاء ليؤدبني والحمد لله تأدبت، وعرفت إن أنا حمدته خفف عني الألم، وإن رضيت بما قدر لي أرضاني هو بقدرٍ أحبه، كنت أشعر بنظرته إليّ وحنانه عليّ حقيقة لا خيالًا، كنت أحس به يتبسم ثم يباهي بي ملائكته وهو ينظر إليّ وأنا أحمده في أشد حالاتي تعبًا وأكثرها ألمًا ووجيعة، انظروا إلى عبدي الصابر، تاب إليَّ فحولت سيئاته إلى حسنات، وابتليته فرضي وصبر.

تخيلوا أنني بعد كل الجحود والعناد الذي كنت أغرق فيه أدعوه الآن في كل جلسة، يا رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك..!

في هذا المرض رأيت من هم أعظم بلاءً مني ومع ذلك فهم أكثر صبرًا، رأيت من كان مرضه أخطر، ومن كانت حياته أقسى، رأيت هنا كل شيء ونقيضه، كل مرادف وعكسه، رأيت أطفالًا صابرون، وشيوخًا هزمهم اليأس والمرض.

أكتب لكم الآن لأنني أحبكم، وأحب أن أخبركم بأن حياتكم جميلة، فاسألوا الله أن يديم نعمته عليكم، وأن أقداركم رَحِبة فلا تسخطوا عليها أبدًا، لا جرعات كيماوي قاتلة، ولا نيران محرقة تجري مجرى الدم في الجسدِ والعروق، لا أسِّرة بيضاء، ولا جلسات طويلة مؤذية، تريدون بعدها أن تناموا طويلًا، وربما أن تموتوا أبدًا.

لا خصلات شعر متساقطة خصلة خصلة، ولا حاجبان قد اندثرا تمامًا، ولا رموش قد احتفظتم بآخر شعرة منها.

***

الثامن والعشرين من فبراير.. العاشرة صباحًا. -

اليوم أنا جالسة بباب المشفى أنظر إليه وأتأمله، وأتذكر كل ما حصل معي في خلال العامين الماضيين، بكل مشاعرهما وقهرهما وآلامهما، وبكل لحظة صعبة فيهما، أتذكر يأسي وأملي، صبري وشكري، أذكر كيف تحديت ذلك المرض مع *إيناس* -رحمها الله- ثم ها أنا وحدي، أذكر كم مرة احتضنت نفسي في الليالي

المظلمة، وكم مرة أخبرت روحي أن الجزع نصف الداء والصبر نصف الدواء، ومع ذلك كثيرًا ما احتلني الجزع وهجرني الصبر..!

أذكر يوم أن زارني *عبد الرحمن* حتى صرت واحدة من العائلة، ويوم أن كتبت لي الحاجة زينب لتخبرني أنها تصلي من أجلي وتسأل الله لي العافية أكثر مما تسألها لنفسها، أذكر كيف اصطحبني طبيبي الخاص إلى قبر أمي يوم أن ساءت حالتي وأشرفت على الموت، أذكر كيف تكفل تمامًا بأمري وكيف بكى معي أمام القبر، أذكر كيف تعرفت إلى *إيناس* الجميلة وكيف تعاهدنا على الشفاء معًا، وكيف ودعتها في النهاية وحدي،

أذكر كيف ختمت سورة البقرة وكيف أقاموا لأجلي احتفالًا ضم كل رواد المشفى.

الآن أيقنت أن هذا المرض كان خيرًا لي، وأن الله وضعه في طريقي لأنه يحبني، وأنه ابتلاني ليردني إليه ردًا جميلًا.

الآن أقف بباب المشفى أكتب كلماتي هذه وبيدي نتائج فحوصاتي وقد بشرني الطبيب بأن الله شفاني شفاء تامًا، وأنني بفضله وكرمه قد تعافيت تمامًا من هذا الداء، سأختم رسالتي الآن -لكن ما زالت بيننا رسائل كثيرة أخرى- لأن أسرتي الصغيرة تنتظرني لأبشرها، والحاجة زينب ساهرة منذ الأمس تصلي لأجلي، ولأن عبد الرحمن يوزع الصدقات منذ الصباح الباكر رغبة أن يداوي الله مريضته بالصدقة، ولأن طبيبي الخاص ينتظرني بالسيارة حتى يوصلني بنفسه إلى أسرتي.

سلمى.. مُحاربة سابقة، وناجية جديدة من السرطان.

* * *

(٥)

إلى العزيز أبي..

رحمةٌ من الله ومغفرة عليك، هذه رسالتي السابعة والأربعون والتي أرسلها إليك عبر بريدك الإلكتروني رغم علمي التام أنك لن تقرأ حرفاً مما أكتب، لكنني في حاجة شديدة للحديث إليك فاليوم هو ذكرى وفاتك الثالثة، لا شيء جديد يمكنني أن أقوله لك لكنني أفتقدك بشدة، أفتقدك بدرجة جعلتني أفكر في أن أذهب غدًا لأحتضن مقبرتك!

بابا الحبيب، لقد تزوج أخي *حسام* اليوم، كانت السعادة تلف قلوب الجميع إلَّا أنا، كنت أشعر بوخز شديد - في صدري وبغصةٍ مُرة في حلقي ولا أدري ما السبب، كانت عيناي منتفخة ومليئة بالدموع على غير العادة ووجنتي محمرة ووجهي كئيب وكأنني قد تلقيت خبر وفاتك للتو، في النهاية التقطنا صورة تذكارية للعائلة كلها، عندها اكتشفت أن الصورة تفتقد شخصًا جوهريًّا للغاية، إنه أنت!

***

بابا العزيز..

إنها رسالتي الخمسون إليك، لقد تخرجتُ اليوم من الجامعة بتقدير ممتاز، أمسكت الميكرفون لإلقاء كلمة الطالب الأول، لم أستطع الحديث ورغم أنني تدربت على إلقاء الكلمة مرارًا وقلتها مسبقًا أمام زملائي أكثر من ثلاث مرات إلَّا أنني لم أستطع قول حرف منها، وقفت الحروف على طرف لساني، وعجزتْ تمامًا عن مغادرة شفتاي، في النهاية هزمني الحنين إلى وجودك بجانبي، وقلت من بين أدمعي بصوت يحمل رنة البكاء: لا أقدر على قول أي شيء سوى أنني أهدي هذا النجاح لأبي القابع في مقبرته الآن، فضلًا ترحموا عليه!

***

بابا الحبيب.. -

صباح اليوم ركبت الحافلة متجهة إلى عملي، سمعت أحد الرجال يحدث إحداهن في الهاتف قائلًا: هيا استيقظي، لقد أُهدِر الوقت، وأنا أحاول إيقاظك، تناولي فطورك سريعاً، بالكاد تلحقين الجامعة.. لا أدري لمَ سالت دموعي رغمًا عني لكنني شعرت بحاجة ملحة لاحتضان الرجل لكنني تراجعتُ في اللحظة الأخيرة.

***

إلى العزيز بابا..

لقد قمتُ بزيارة مقبرتك اليوم أمضيت هناك ثلاث ساعات، حدثتك فيها عن زميلي بالعمل *يوسف*، والذي يرغب في الزواج بي، إنني في أشد حالات انهياري يا أبي، لا أدري لمَ تذكرتُ شجاري معك خلال فترة

مراهقتي والذي كان سببه أنني أرغب في الزواج من أحد زملائي بالصف، فما كان منك إلَّا أن صفعتني، فتوقفت عن التعامل معك أو الحديث إليك لستة أشهر كاملة، متجاهلةً كل محاولاتك المقنعة لمصالحتي والتحدث إليَّ، هلا سامحتني يا أبي؟!

السلام عليك يا بابا هذه أنا، فتاتك المدللة وصغيرتك التي كبرت للتو، غدًا سوف أتم عامي الثلاثين، هل تذكر دُعابتك المكررة معي والتي ما كنتَ تنفك عن قولها دائمًا لي: ستظلين فتاتي المدللة وطفلتي الصغيرة حتى تبلغين عامك الثلاثين؟!

رحيلك يا أبي يشعرني أني غدًا سوف أتم عامي الستين!

***

ملحوظة:

لقد احتل الفقد قلب مدللتك فما عادت كذلك!

أووووه يا أبي، بعد السلام عليك، صباح اليوم وجدت أمام شرفتي باقة من الورود الحمراء، لم أتوقع أن - يتذكر أحد يوم مولدي، تُرى من سيكون هذا المرسل الذي يهتم لأمري إلى هذا الحد؟ عندما قرأتُ البطاقة المرفقة ارتجف قلبي، وتصلب جسدي، واغرورقت عيناي بالدموع، فقرأتُ من خلف دموعي:

* إلى ابنتي المدللة وفتاتي الصغيرة، ستظلين كذلك حتى وإن بلغتِ عامك الثلاثين، لقد أوحشتِ قلب أبيك لكن حسبه أنك تذكرينه دائمًا، وتتصدقين عنه وتدعين له، عمرٌ طويل في سعادة وهناء إن شاء الله.. بابا.

ملحوظة.. لم أتوقع أن تصلني معايدة من أحد بمناسبة مولدي، فما بالك أن يهتم أحدهم بسعادتي رغم أنه فارق الحياة منذ تسع سنوات! لقد قص عليَّ بائع الورد اهتمامك بميلادي الثلاثين منذ سنواتٍ بعيدة، فلم تتوقف عيناي عن البكاء حتى الآن، أفتقدك يا بابا، وأتساءل كيف لقلوب الآباء ألَّا تتخلى عن مراعاة قلوبنا الصغيرة حتى لو غلف تراب الأرض قلوبهم؟!

* * *

(٦)

أمي العزيزة..

الحاجة *غالية*، اسم على مسمى يا أما.. كيف حالك وكيف حال العِيال *حسين* و*علي* و*بسيمة*؟ أوحشتموني جميعًا، أكتب لكم الآن من الغربة، وأشعر أنني غبت عنكم عامًا كاملًا رغم أنني كنت أعانقكم أول أمس، اطمأنوا عليّ، الأحوال هنا جيدة والأمور كلها تسير على ما يرام، لقد منحني مدير الشركة غرفة خاصة أوسع من غرفتي بالبيت لكنها مع ذلك ضيقة، ومنحوني وجبة لحم طيبة لكن عدس أمي أشهى منها ألف مرة.

أتخيلكم جميعًا تلتفون حول رسالتي، يقرأها عليكم *حسين* الآن، أخي الصغير وابني البكر، كيف حالك يا حسين؟ لعلك اطمأننت عليَّ وتوقفت أخيرًا عن البكاء لقد تركت خلفي رجلًا فلا تعد للبكاء مجددًا أبدًا، فأنت الآن عمود البيت، أمك وإخوتك أمانة في عنقك، وأعلمُ جيدًا أنك *قد الأمانة وقدود*، لا تجعل *بسيمة* تبكى أبدًا، ولبي لأمي كل ما تطلبه منك، وكن لـ *علي* خير والد كما كنت دائمًا لك.

يخبرونني أن راتبي جيد، كل المغتربين هنا مثلي، يقولون لي إنهم ينجحون شهريًّا في ادخار جزء كبير منه، فلا تحملي هم خزين الأرز يا أما هذا العام من الآن فصاعدًا لن تبيتوا جائعين، ولن تكملوا نصف عشاءكم نومًا كما كنَّا نفعل سابقًا، وأنت يا حسين، لن أنسى أبدًا ما وعدتك به، تلفزيون ملون ومال وفير حتى تدهنون البيت باللون الأزرق كما كل بيوت القرية، أوصيكم كلكم بأمكم خيرًا وأوصيها بكم، اكتبوا لي دائمًا وارسلوا مع كل خطاب صورة تجمعكم، إنني هنا وحيد لكنني أعلم بأن صوركم ستؤنس وحدتي.

سلامي لكم جميعًا ولجارتنا *هدى*، أخبروها أنني سأعود قريبًا وفي جيبي خاتمًا وأموالًا كثيرة كي ننشئ البيت الذي تعذر إنشاؤه بلا غربة، سلاماتي الحارة لخالي *عبد الرحمن* شقيق أمي الوحيد وأبي من بعد أبي، كلما سمعت صوت الأذان هنا تذكرتك يا خالي، ثم قلت في نفسي لا أحد يؤذن كخالي *عبد الرحمن* صوته حنين ونغمته حِلوة يجرك من عنقك للصلاة حتى لو لم تكن تنوي الذهاب إليها.

أقبلكم جميعًا..

***

ابنكم البكر *إبراهيم*.-

إلى أصدقاء المقهى فردًا فردًا، رفقاء الطفولة والصبا أصحاب الكفاح وزملاء الركض وراء الرغيف، - كيف حالكم؟ أفتقدكم جميعًا وأفتقد لمتنا معًا، أكتب لكم الآن بقلم ذهبي اللون عزيز عليّ، لا أعدل به كل أقلام العالم، أهداه أحدكم إلي ليلة سفري فأقسمت ألَّا أكتب به شيئًا سوى الخطابات، الغالي للغالي كما يقولون، وصحبتكم أغلى ما ادخرته لنفسي ذات يوم.

الأجواء هنا باردة، الثلج يتساقط كل يوم، فأقول لنفسي عندما يهطل ألا يكفيني صقيع الغربة حتى يتآمر عليَّ معها صقيع الشتاء أيضًا، فتلمع في ذهني صورة لعريس جديد يمنحني جاكتة عرسه على أبواب المطار

قبيل سفري بلحظات، قائلًا تدثر بها جيدًا، الصقيع في الغربة ينفذ إلى الروح قبل العظام، إنني أرتدي الجاكتة الآن يا *سيد* وأشم فيها رائحتكم جميعًا، ولا أدري هل الرائحة لا زلت عالقة بالجاكتة أم أنها عالقة بأنفي منذ أن غادرت، جاكتك تقيني برد الشتاء والغربة، لذا أقسم أنني سأشتري اثنتين من هنا وأرسلهم إليك، وإلى جانبي مصحف، أغلى هدية مُنحت إليّ ذات يوم، أهداها لي *أحمد* صبيحة سفري قائلًا ضع هذا دائمًا في جيبك حتى يحفظك الله به.

المصحف في جيبي دائمًا يا أحمد، كلما اشتد عليَّ ضيق وشتات الغربة هرعت إليه حتى يحفظني الله به كما أخبرتني، الصورة الأخيرة لنا في جيبي دائمًا، لا أخرجها أبدًا منه والمصحف والجاكتة والقلم في عيني، أخبرني حسين في خطابه الأخير أنكم تحملون طعماكم وتذهبون للغداء عندنا كل جمعة، فأشتاق للمة الحلوة، وأحسد أمي بكم ثم أحسد نفسي لأنني حوشتكم للعمر الطويل إن شاء الله.

قبلاتي لعادل صاحب القلم الذهبي، ولسيد العريس صاحب الجاكتة، أما أحمد صاحب المصحف فلا أدري ماذا أكتب له لكن أموالك أمانة في عنقي يا حبيبي حتى أردها إليك على داير مليم، لا أحد يقرض أحدًا مالًا هذه الأيام، فما بالك أن يقرضني أحدهم نصف تكاليف سفري، جميلك دين عليَّ حتى أرده لك في عرسك أضعافًا كثيرة إن شاء الله، لن أنسى صنيعك معي ولا أنك بعت لأجلي خلخال أمك الذهبي آخر ما تبقى لك من رائحتها، والشيء الوحيد الذي ورثته منها لكنك مع ذلك آثرتني به.

إلى ابني الأول وضلعي الثابت *حسين*، ألف مبارك يا حبيبي، عرفت من خطابك الأخير أنك أنهيت - الإعدادية بدرجة ممتاز، ممتاز حتة واحدة يا * ولد* أم أنه يتوجب عليَّ من الآن أن أناديك بدكتور حسين؟ أفضل دكتور يا حبيبي، خليفة مجدي يعقوب وأحمد زويل ومصطفى مشرفة إن شاء الله، ظننت أن التلفاز الملون سيلهيك عن دراستك لكنك تثبت لي دائمًا أنك خير ألف مرة من ظني بك، الحمد لله الذي لم يُذهب غربتي سدى وعوضني بنجاحك خير عوض عن تعليمي الذي لم أكمله بعد وفاة والدي.

عرفت من خطابك أيضًا أن المحافظة ستجري حفلًا لتكريمك الأسبوع القادم، يعز عليّ أنني لن أحضره لكن روحي حاضرة دائمًا معكم يا حبيبي، طمأن أمك عليّ، قل لها إن كل شيء كامل في الغربة إلَّا فرحتي ناقصة لأنني بعيد عنكم، سأرسل لك هدية نجاحك في أقرب وقت، تسألني ما هي أليس كذلك؟ لن أخبرك، دعها مفاجأة، سلاماتي الحارة لبسيمة وعلي وخالي عبد الرحمن، لماذا لم تكتبوا لي عنه في الأيام الأخيرة، هل نسيني بهذه السهولة؟ وماذا عن أهل الشارع هل كلهم بخير؟ سلامي لهم جميعًا لا سيما جيرانكم الأقربين.

ملحوظة.. أخبروا خالي عبد الرحمن أنني أخيرًا في الغربة وجدت أذانًا أفضل من أذانه وصوت أحن عليّ - من صوته..!

أعزائي في مصر المحروسة، أبعث إليكم أشواقي الحارة وأمنياتٍ كثيرة باللقاء العاجل، كيف حالكم جميعًا - وكيف حال خالي عبد الرحمن؟ إنني قلقٌ جدًّا عليه، يزورني في الحلم منذ أيام ثلاثة، ينظر إلي صامتًا ثم يعانقني ويمضي، هل أحزنه ما كتبت له؟ أخبروه أن لا أحد يؤذن هنا كأذانه، كنت أمزح معه فقط لعدم سؤاله عني واشتياقه إلي، لعلك بخير يا خالي، لكن لي عتب عليك، تبخل عليَّ فجأة بالسؤال وبالصور، هل أغضبتك في شيء؟ والله لم أنسَ ما وعدتك به قبل السفر، لقد اشتريت لك جلبابًا صوفيًّا، لم أخبرك مسبقًا بشأنه لأنني نويت أن أجعله مفاجأة، لكن يبدو أنك ظننتني لا أهتم لأمرك، ونسيتَ إن بعض الظن إثم.

***

أمي الغالية.. -

حسين وبسيمة وعلي روح قلبي وزهرات فؤادي، كيف حالكم وكيف حال مصر على حِسكم؟ أوحشتموني جميعًا، لا أصدق بأنه مر على سفري عامان ونصف، الأيام هنا تمضي بسرعة عجيبة ودوران مذهل، حسين أصبح طالب ثانوي، وبسيمة ارتدت الحجاب، وعلي بات طالبًا بالمرحلة الإعدادية، من يصدق كل هذا؟

كل الأشياء تغيرت في لحظات سريعة يا أما، إلَّا أنا، لا زلت عالقًا عند الليلة السابقة لسفري وكأنها محطة ثابتة لا محطات بعدها أبدًا، إذا تخيلتكم تخيلت بسيمة صاحبة الضفيرتين، وحسين العَيل يبكي وهو يودعني، وعلي وهو يلعب الكرة في الشارع لأنه لا يدرك ما يدور حوله، العمر اتسرق في الغربة يا أما لكن الحمد لله سرقة مدفوعة الأجر، بلغي خالي عبد الرحمن أنني حزين منه، كنت أظن نفسي غاليًا عنده، في الأيام الأخيرة أصبحت أتوسل صورة له كفقير يتوسل إلى غني.

توقف عن القراءة يا حسين، وأرسل في طلب عادل وسيد وأحمد وهدى، أمرنا لله وخالي عبد الرحمن أيضًا رغم غضبي منه، حسنًا، أنتم جميعًا تلتفون حول خطابي الآن، كيف حالكم؟ أكتب لكم ودموع مريرة تقف عند زاوية فمي لأنني لست معكم، الغربة مُرة مهما أغروكم بحلاوتها، وقاسية مهما قالوا عنها العكس، أتمنى لو كنت معكم الآن، أن آكل على مائدة تأكلون عليها، أو أن أجلس في مجلس يجمع كل الحبايب كما تجتمعون حول رسالتي.

بعد التحيات لكم جميعًا، وبعد السلام الحار لكل فرد على حدة، أرسلت إليكم مع خطابي هذا بعض الهدايا المتواضعة علكم تسعدون بها عن بعدٍ فأسعد لأجلكم، أو يضحك أحدكم ملء فمه فأضحك أنا ملء قلبي، الجلاليب الرجالي للشباب، اقتنيت لكل فردٍ منكم واحدة -والله- من أجود الأنواع هنا، قلت لنفسي وأنا أقتنيها إنها ذاهبة للحبايب، فأرسل للحبايب ما يليق بهم، أما الجلاليب القطيفة فواحدة لأمي والباقي لبسيمة وهدى.

اعطوا الجاكتة الجلد لسيد، والبطانية القطيفة لأحمد، أما عادل فقد اقتنيت له أخيرًا كاسيت كما كان يوصيني دائمًا، امنحي المصلية لخالي عبد الرحمن وقبليه نيابة عني، وقولي له إن صوته أحن صوت سمعته، وإن أذني لا تستعذب أذانًا غير أذانه.

لقد أرسلت لكِ يا أما بعض المال، اقسميه على ثلاثة أجزاء، أما الجزء الأول فاصنعي به قرصًا بالتمر ووزعيها على القرية كلها الكبير فيها والصغير، ثم اطلبي منهم أن يدعوا لأبي بالرحمة، أما الجزأين الباقيين فجزء لكم، والآخر لخالي عبد الرحمن عسى أن نرد جزءًا من كرمه علينا.

وضعت مظروفًا كبيرًا من المال في بطانية *أحمد*، أظنني هكذا قد أنهيت كل ما اقترضته منه، أما جَمِيله فهو في عنقي لن ينتهي أبدًا.

وأخيرًا العلبة السوداء الصغيرة من حق حسين، هدية نجاحك يا حبيبي، صحيح أنها هدية متأخرة جدًّا لكنها أخيرًا أتت على كل حال، تريد أن تعرف ما بالعلبة أليس كذلك؟ افتحها وانظر، لا تصدق عينيك أليس كذلك؟ نعم، إنها الكاميرا التي لطالما حلمت بها، مبارك لك يا حبيبي، التقط صورة بها حالًا لهذا الجمع الجميل، ثم ارسلوا الصورة إليَّ،

السلام أمانة لكل أهل البلد ولجيران الشارع واحدًا واحدًا وحتى للنباتات في الأرض والطيور في السماء والحيوانات في الشوارع.

مُحبكم جميعًا.. إبراهيم. -

آآآه يا أما.. هان عليكِ يموت خالي عبد الرحمن فلا أعلم بموته إلَّا بعده بثلاثة أشهر! هان عليكم تدفنونه - دون أن ألقي عليه نظرة أخيرة أو حتى أعانقه عناق الوداع؟ تسيّرون جنازته من دوني وكأنه شخص غريب عني لا يعرفني ولا أعرفه! ملعونة الغربة يا أما وملعون السفر، تقولين المغترب فريسة للقلق فلا تقلقوه، ليتكم أقلقتموني بمرضه -والله- كنت أنهيت غربتي حالًا لأجله، وأتيت لأعانقه أو لألقي عليه حتى نظرة الوداع.

لم أكن أعلم أن لقاءنا كان الأخير يا خالي، وأن أذانك الأخير قبيل وداعي كان آخر أذان أسمعه منك، والله لو علمت ما غادرت مصر أبدًا، ولسجلته حتى أسمعه في كل لحظة، من كان يصدق أن عناقنا معًا كان العناق الذي لا عناق بعده، وأن الجلباب الذي اقتنيته لك لن تلبسه أبدًا، سامحني يا خالي وسامح سوء ظني فيك، من سيستقبلني في المطار عندما أعود، ومَن سأوصيه من بعدك على الأهل والأولاد؟ رحيلك قاصم يا حبيبي، ومفاجأة قاتلة لم أتوقع أبدًا أن تفاجأني بها.

أمنياتي لكم بالصبر يا أما، ودعواتي الحارة الباكية لقبر خالي عبد الرحمن، فلا تبخلي بزيارته لأجل إبلاغ سلامي له، سأرسل لكِ مبلغًا من المال كل شهر تمنحينه لفقراء القرية صدقة على روحه، ومبلغًا آخر لإصلاح فرش وصنابير المسجد الذي كان يؤذن فيه، وقرصًا بالتمر توزعينها على كل جائع لأنه كان ممن يحبون إطعام الطعام لكل مسكين ويتيم وفقير.

أمي العزيزة لعلكم جميعًا بخير، في الصورة الأخيرة لمحت أنوارًا معلقة على بيت الجيران، أخشى أن - يصدق ظني يا أما لأول مرة أتمنى أن تخيبوه، اكتبوا لي سريعًا وقولوا إن *هدى* لم تتزوج وأنها لا زالت باقية على العهد تنتظرني، أكاد أجن يا ناس، هل أصبحت هامشًا إلى هذه الدرجة؟ يموت الأموات فلا أمشي في جنازتهم، ويمرض المرضى فلا تخبروني أبدًا بمرضهم، ويخون المخلصون العهد فينقضونه بلا مقدمات أو خبر، يقولون الغربة كربة ولا أجد كربًا أعظم مما أنا فيه الآن، ليتني ما تغربت أبدًا، تفرحون أنتم هناك فلا أفرح مثلكم لأنني هنا وحدي، وتتقاسمون الحزن هناك فيقتلني الحزن هنا لأنني أتقاسمه مع نفسي.

إلى أصدقاء المقهى، عادل وسيد وأحمد، عكاز الزمن وتحويشة العمر، تخبرونني على استحياء أنكم في - كرب شديد، وتحتاجون إلى بعض المال، وتسألونني أن أرسل إليكم ولو جزءًا يسيرًا منه، تظنوني بنكًا متنقلًا أليس كذلك؟ وأنه من السهل أن أفرط بما ادخرته لزواجي رغم أنني وصلت الليل بالنهار والنهار بالليل وتغربت عن الأهل والأحباب كي أجمعه..!

ظنكم في محله يا حبايبي، روحي نفسها لا أستكثرها عليكم، إنكم رفاق الطفولة وأصدقاء العمر، تركت أمي وإخوتي أمانة في أعناقكم فصنتم الأمانة، وشردني الفقر سابقًا فحاربتموه معي، والآن تكتبون إلي أنكم في ضيق، وتعطفون على قلبي الوحيد فلا تخبروني ما هو الضيق أو ما سببه..!

لقد كتب لي *حسين*، وأخبرني أن *أحمد* تعرض لحادث أليم أدى لبتر قدمه، وأنه يقضي أيامه الآن بين جراحة انقضت بالأمس وأخرى يجهز نفسه لها غدًا، *أحمد* الذي منحني المصحف كي يحفظني الله به،

ونسي أن يضع في جيبه مصحفًا، أحمد الذي باع لأجلي خلخال والدته كي أهزم الفقر ألا يستحق مني أن أمنحه كل ما ادخرت كي يهزم هو المرض؟ إنه دين قديم يا أحمد طوقت عنقي به، ولن أخذلك أبدًا لأنك كنت حنونًا عليَّ، ولم تخذلني.

إنني أجمع أغراضي الآن، الملابس والقلم والمصحف والجاكتة وكل ما نجحت في ادخاره هنا، لن أدع للغربة فرصة أن تسرق الأحباب مني مرة ثالثة، يكفيني خالي عبد الرحمن وتكفيني هدى، كنت أتمنى عندما أعود أن أجدكم تنتظرونني جميعًا بالمطار، أنت وعادل وسيد وخالي عبد الرحمن وحسين وعلي، كنت أتمنى أن نمرح ونضحك كثيرًا في طريق العودة حتى نصل إلى الشارع فأجد أمي وبسيمة وهدى يزغردن لأجل عودتي سالمًا، ويباركن لي، لكن لا بأس يا حبيبي، ستخرج أنت من الجراحة، وستجدني أنا في انتظارك أبارك لك نجاحها ووقوفك على الأرض من جديد، ستجدني سندك وعكازك كما كنت سندي وعكازي دائمًا.

أخوكم.. إبراهيم.

*** * ***

(٧)

عزيزي وليد..

بعد مرور عام ونصف على فراقنا، لأول مرة لم أهاتف صديقتي *فاطمة* لأخبرها أنني أحتاجك وأشتاق إليك!

اليوم ولأول مرة منذ أن كسرت خاطري أحتضن صديقتي الوحيدة *فاطمة* دون أن أخبرها أنني بحاجة لعناقك أنت!

اليوم ولأول مرة منذ أن افترقنا أخرج من المنزل برفقة صديقتي *فاطمة* دون أن نمر من نفس الشارع الذي تقطن به!

ولأول مرة منذ آخر يوم رأيتك فيه أمسك بهاتفي، وأبكي على شاشته بصمت لكن دون أن أحن إليك!

اليوم ولأول مرة أشعر أنك لم تكن سندًا لي يومًا، وأن صديقتي * فاطمة* هي سندي الوحيد!

اليوم ولأول مرة أشعر أنك لم تكن ملجأ لي، وأن فراقك لم يكن أسوأ ما مررت به، وأنني ما شعرت بالوحدة في غيابك أبدًا!

اليوم ولأول مرة أعلم أن خيبتي بك لم تكن أعظم الخيبات، ومصيبتي فيك لم تكن شر البلايا، اليوم لم أرتد السواد لغيابك، اليوم لف السواد حياتي كلها!

اليوم ولأول مرة، أشعر بالفراق الحقيقي، والذهاب بلا عودة، والفقد بلا رجاء، اليوم ماتت صديقتي فاطمة*. *

منال*.. خطيبتك سابقًا. *

* * *

(٨)

سلامًا عظيمًا للعالم كله بحق كل السلام المفقود الذي حُرمنا عنوةً منه*..! *

عبارة قصيرة كتبها *تميم* أخي على جدار غرفة المعيشة ذات صباح، فرافقت ذهني طوال العمر، لم أفهم ما تعنيه الجملة تحديدًا وقتها لكنني متضامنة مع كل ما يصدر من *تميم*، أخي الأكبر، رب البيت من بعد أبي وحامل المسؤولية العامل نهارًا لأجلنا الساهر ليلًا لأجل دراسته، يتحدث تميم عن السلام كثيرًا، وعن كيفية استرداد الأرض، وعن العدو، وعن الشهداء والجرحى والفقراء، عن قبلة المسلمين الأولى، وعن مسرى الرسول مُحمد، عن زيارة عمر بن الخطاب لبيت المقدس، وعن الأذان الوحيد لبلال بن رباح بعد موت رسول الله والذي كان هنا عندنا في فلسطين الجريحة، *تميم* يحب الأرض ويقسم أنه سيدفع روحه ثمنًا لاستردادها، ويكره اليهود الأنذال ثم يقسم ثانية أنه يومًا ما سيشتت شملهم، ويؤرق نومهم، ولن تذهب حياته سدىٰ، فينذر روحه لتحرير الأرض بعد كل صلاة مكتوبة.

تميم أخي يعرف كل شيء في هذا العالم بل إن حدود معرفته أكبر من العالم نفسه، تميم يمكنه فعل أي شيء، وتصليح كل تالف، وإعادة الحياة لكل من فقدها لكنه عجز عن إعادة زهرة *أختي* للحياة يوم أن قُتلت غدرًا على يد الصهاينة!

أنا *شام*، طفلة في السادسة من عمري، أنتمي لأسرة صغيرة مكونة من خمسة أفراد، وأعيش في بيتٍ جميل له حديقة صغيرة مليئة بأشجار الكروم والزيتون والليمون والموز وبئر عجوز تروي معظم أشجار الحي، الحياة هنا جميلة لكنني لا أعيشها كما ينبغي، والناس هنا طيبون لكنهم مقهورون أكثر من اللازم، والبلد فاتن وجميل لكنه يُشوه رويدًا رويدًا، يقولون إن بلدي مُحتل لكنني لا أفهم ماذا يقصدون، ويقولون إن الاحتلال يحصد أرواح الناس فلا أفهم المعنى وإن كنت أفزع منه.

يعلمني تميم أن أكتب ذكرياتي كل يوم لكن أمي تمنعني، تقول إن الذكريات تقتل كاتبها بعدما يرحل أصحابها، فيقول *تميم* على الأقل نتذكر بأن أصحابها كانوا هنا يومًا ما!

أمي تعمل معلمة بمدرسة الحي مقابل مبلغ ضئيل جدًّا، وتميم يعمل في الزراعة تارة وفي البناء تارة أخرى، كل أشجار الشارع غرسها بنفسه وعندما كبرت نقش اسمه عليها.

أستيقظُ صباحًا فلا أحمل سوى هم اللعب وهل ستسمح أمي لي بالخروج إلى الشارع أم أن الكلاب يمشطون المنطقة اليوم، ولا أفهم كيف يمشط الكلاب المنطقة ولا ما علاقة هذا باللعب..!

أختي زهرة تذهب إلى المدرسة يومًا، وتتغيب عنها عشرة لظروف الاحتلال، وأبي يذهب إلى العمل صباحًا لكنه يغيب فيه لأيام متواصلة لأن الكلاب قد منعوا الخروج من الحي أو الدخول إليه، أما تميم فكما هو يعمل بالبناء لأن أمنيته أن يصبح مهندسًا معماريًا ليعيد بناء كل البيوت التي تهدمت في الحرب، أو يزرع الأشجار لأنه يحب الخضرة، ويسقي الزهور لأنها تعيد الحياة لمدينتنا المحتضرة دائمًا على حد قوله، أما زهرة فلا تكف عن المذاكرة أبدًا لأنها تريد أن تصبح طبيبة فتعالج كل مصابي الحرب، وأما أنا فألعب في

الحديقة غالبًا، أختفي خلف البئر لكن زميلي *مصعب* يعثر عليَّ في كل مرة، وأتشاجر عادة مع *مها* لكن *سارة* لا تكف عن مصالحتي عليها.*

نجمع الفواكه، ونتسلق الأشجار، ونجلب المياه من البئر، ونقلد تميم وهو يتحدث عن السلام والحب والإنسانية، ونحلم أن نكبر ذات يوم فنذهب إلى المدرسة كما كل أطفال العالم، تخطف *مها* دميتي فأركض وراءها، ويتحدث *مصعب* عن الحرية والسلام فأخبره أن حديث *تميم* أحلى، وتخرج أمي لنا بالفطائر لكن *سارة* وحدها من تأكلها لأن أمها ماتت ذات قصف ولا فطائر تصنع في بيتهم أبدًا، تحوم الطائرات فوق رأسي، وتنطلق الصواريخ بالقرب منه فأفهم أخيرًا ما يسمونه بالاحتلال، وتخرج أمي مذعورة لتعيدنا إلى البيت لكنه يُقصف قبل أن نعود إليه فتموت فيه *زهرة* وحدها.

تزغرد أمي باكيةً، ويزغرد كل بيتٍ خرج منه شهيد فأكره الزغاريد، ويعود تميم أخيرًا فيحتضن أشياء زهرة ثم يبني البيوت من جديد، أفتقد زهرة فأسألهم عنها فيخبروننني أنها بالجنة، فأسأل الله أن أذهب إليها لأنني أفتقدها فتفزع أمي، يذهب *تميم* كل يوم إلى قبرها يزرع أصنافًا من الورود فأتخيلها وردة بينهم، أخبرهم أنني عندما أكبر سأسمي ابنتي زهرة لكنني سأحميها من القصف، وأطلب من تميم أن يتوقف عن بناء البيوت لأنها تنهدم فوق رؤوس الأبرياء، لكنه يأبىٰ، ويعود أبي أخيرًا من العمل فأراه يبكي لأول مرة.

أكره الزغاريد، إنها تعني أن شابًا رحل غدرًا وأن وردة ذبلت قبل أن تتفتح، أرى الصواريخ في السماء فأعلم أن شهيدًا جديدًا سيغادر بيته فأحتضن كتب *زهرة*، وأرى تميم يبني البيوت من جديد فأفكر على رأس من سينهدم البيت، ويكتب اسمه على أشجار الشارع فأخبره أنني أشعر أن بينه وبين الأشجار قرابة فيؤكد الشعور، وأبلغ عمر الدراسة فأقرر أن أصبح طبيبة لأحقق أمنية زهرة لأن القدر حرمها تحقيقها.

أخيرًا سأذهب إلى المدرسة غدًا برفقة *سارة* و*مصعب* و*مها* جيراني في المسكن وأصحابي في الحي..

تفتيش يتلوه آخر، وكلاب عسكرية تحيط بنا من كل جانب، وبنداق مصوبة إلى رأسي الصغير كلما سرت بطريق المدرسة، سارة تخشى الكلاب فتتغيب عن الحضور دائمًا، ومصعب ومها يخافون البنادق لأن أبيهم قتل بها أمام أعينهم ذات يوم، فلم يعد يذهب إلى المدرسة سواي، تأخذني أمي معها كل صباح، فأسألها متى سيعود رفاقي ثانية، فتقول عندما يرحل الكلاب وتحطم بنادقهم، لكن الكلاب لم يرحلوا حتى هذه اللحظة، والبنادق يقتل بها الأبرياء كل يوم.

أذهب إلى المدرسة صباحًا فيحدثونني عن الحب والحرية والكرامة والسلام، وأعود منها مساءًا فيكذب الواقع كل ما درسته في الصباح.

مؤخرًا نذهب إلى المدرسة كل يوم لأننا تعاهدنا أن نبني وطنًا تعاهد العدو على هدمه، ندرك حجم الخطر صغارًا لكن الخطر يعجز عن إدراك طفولتنا، مصعب يريد أن يصبح سفيرًا للسلام ليرحم كل أطفال العالم من معاناة طفولته، ومها ترغب في أن تكون معلمة لتعلم الأطفال حب الوطن، أما سارة فترغب في أن تدرس الحقوق لتعيد الحقوق المغتصبة إلى أهلها، أما أنا فعندما يسألونني ماذا أريد أن أكون أتذكر قبر زهرة، ثم أقول باكية أريد أن أكون طبيبة!

نذهب إلى المدرسة أربعة كل يوم لكننا ذات مساء نعود منها ثلاثة، ندفن *سارة* إلى جانب زهرة، وأسأل مصعب هل ستعود الحقوق إلى أهلها ذات يوم أم أن الحقوق ضاعت بضياع سارة..؟

ذهب أبي إلى العمل ذات صباح فلم يعد منه، وخرجت أمي لتجلب لي طعامًا ذات ليلة فلم تعد أبدًا، وهُدم منزلنا ذات قصف فلم يُبنَ ثانية لأن تميم قد اعتقل بعد تخرجه بأيام، أنتظرهم على ركام البيت ودميتي بين يدي، عسى الله أن يأتيني بهم جميعًا إنه هو الغفور الرحيم لكنني أظل أنتظر أكثر من ثلاثة عشر عامًا..!

أمشي في الطرقات فتسيل الدماء من قدمي الحافيتين لأن حذائي قد ضاع مع القصف منذ سنواتٍ طويلة، وأسأل الناس متى يعود تميم فيبكون لأجلي، وتُمزق ملابسي رغمًا عني فيأتيني الجيران بحجاب لأنني قد كبرت، فأقسم لهم بأنني لا زلت صغيرة، ويمنحني المارون طعامًا فأرفضه ثم أخبرهم أنني أنتظر طعام أمي الذي ذهبت تجلبه لي منذ ثلاثة عشر عامًا، لا بدَّ أنها ستعود بالطعام ذات يوم.

أعيش في بيت صديقي مصعب الذي انضم مؤخرًا إلى صفوف الفدائيين، يتحدث عن السلام مجددًا فألمح فيه وجه تميم، وأُلبِسُ مها فستانٍ زفافها فأتخيل سارة تزفها إلى زوجها معي، وأبحث عن تميم في كل شوارع الحي فأري اسمه منقوشًا على كل شجرة فأحتضن الشجر رغمًا عني، وأتخيل أبي عائدًا من العمل تتبعه أمي فنبني البيت مجددًا ريثما يعود تميم، أسأل دميتي هل سنظل ننتظر كثيرًا فيندهش الناس لأنني أحادث دمية، ولا يدركون أنها الوحيدة التي ظلت معي، عندما رحل كل الذين أحبهم.

أسقى قبر زهرة وسارة، وأطلب منهما أن يقيما لي بيتًا في الجنة معهما لأنني كرهت جحيم الدنيا، وأحادث مصعب كثيرًا لأنني أرى فيه وجه تميم، وأحمل مولدة *مها* بين يدي فأسميها *سارة*، وأطلب منهم ألَّا يرسلوها أبدًا إلى المدرسة!

أتزوج أخيرًا من مصعب أنجب منه توأمًا فيسميهم تميم وزهرة، فأبكي، أتذكر تميم الحقيقي، وأسأل تميم الصغير متى سيعود خاله فلا يرد، وأتمنى من الصغيرة زهرة أن تكون طبيبة لتحقق أمنية خالتها لكنني أتذكر أن الأنذال هدموا كلية الطب، أذكِّر مصعبًا بحديقة بيتنا فيقسم أن يبنيه مجددًا لأن تميم حتمًا سيعود إليه يومًا ما، وأحدثه عن أشجار الليمون والكروم والموز فيزرعها مجددًا ليتسلقها الصغار الجدد تميم وزهرة وسارة..!

وأحدثه عن شوقي لتميم أخي فيعانق معي أشجار الحي، أسأله هل كل الأوطان هكذا لكنه يخبرني بأن الجنة هي وطننا الحقيقي، وأخبره بشوقي لأمي فيخبرني أنها في معية الله حية كانت أم ميتة.

يخبره الأطباء أنني فقدت جزءًا من عقلي لكن مصعب يقسم أنني سيدة النساء وأعقلهن، وأن ما مررتُ به كفيلًا بأن يُذهب الروح قبل العقل، تصنع أم مصعب الفطائر فأذهب بها إلى قبر سارة لكنها لا تأكل منها شيئًا، فأبكي، وأتذكرها يوم أن كانت تلتهم جميع فطائر أمي بحديقة بيتنا القديمة، ويعيدون بناء كلية الطب فأكون أول من يبشر قبرَ زهرة، وأقرأ مذكراتي التي كتبتها قديمًا، فأتساءل كيف رحل كل هؤلاء دفعة واحدة؟ وأتخيلهم وقد عادوا إليَّ أيضًا دفعة واحدة، ثم أتذكر حديث تميم وأمي عن الذكريات التي تقتل أصحابها، وأتساءل هل حقًا كان أصحابها معي يومًا ما؟

أجلس أمام حديقة بيتنا القديم فألمح صغاري يعانقون الشجر مثلما أفعلُ، فأقول يا رب أعد لي تميم.. تميم فقط..!

يقف أمامي شاب جميل يشبه تميم في كل شيء سوى قليل من الشعرات البيض، أخبره أنه يشبه أخي، وأنادي صغاري كي يعانقوه ويسلموا عليه لأنه يشبه خالهم، فيعانقني هو ويبكي يخبرني أنه تميم نفسه لكنني أصرخ حتى أكاد أفقد صوتي.

أطلب منهم أن يوقظوني من الحلم، فيقسم مصعب أن هذا الواقف هو تميم أخي فعلًا، أصرخ لأيام متواصلة فيبكي لأجلي الناس، ويحدثني الفتى كثيرًا لكنني أحجم عن الحديث معه حتى لا أتعلق بشخص زائف، وأرى صغاري يزرعون الشجر معه فأسأل الله أن يكون هو خالهم فعلًا.

ويكتب ذات مرة في دفتر الصغار *سلامًا عظيمًا للعالم كله بحق كل السلام المفقود الذي حُرمنا عنوةً منه* فأعانقه لأول مرة منذ عودته، إنه تميم أخي فعلًا.

إنها ذات الجملة التي كتبها مسبقًا بمساعدة زهرة على جدار غرفة المعيشة، تُهيج العبارة مشاعري فأذكُرني سابقًا وأذكُر بيتنا وأهلي فأبكي طويلًا، أعانق الدمية، ثم أذهب إلى قبر زهرة وسارة لأبشرهما بعودة تميم أخيرًا..!

يقولون إن حكايتي مؤثرة فيطلبون مني أن أكتب رسالة إلى العالم لكنني أخبرهم أني سأرسلها إلى الله لأن ضمير العالم غائب، يساعدني تميم في كتابة الرسالة، أكتبُ فيها أسماء كل الذين أحبهم، وأنسى أن أكتب اسم دميتي فيكتبه هو.

تزوج تميم أخيرًا لكن البيت يقصف يوم زفافه، أرى جسدًا مذبوحًا مُعلقًا على أسياخ الحديد، أنادي تميم كي ينقذ هذا الشهيد الجميل الذي ذُبح غدرًا يوم عرسه لكن الناس يقولون إن المذبوح هو تميم نفسه..!

أنظر إلى الرأس دون بكاء، يطلب مني الناس أن أبكي، فأشكو بثي وحزني إلى الله، أجلس مجددًا تحت الأسياخ، أنظر إلى العريس المُعلق، وأبارك له زواجه، ثم أسأله متى سينجب لنا صغارًا آخرين يتسلقون أشجار الموز والليمون؟ فلا يرد، أظل أنتظر عودة تميم من جديد أعاتبه لأنه بنى البيت مجددًا رغم تحذيري السابق له، وأعانق الأشجار ثانيةً لأنني أشم بها رائحته، وأكتب رسائل كثيرة إلى العالم ليمنعوا حدوث مأساة ألف شام مثلي.

شـام-

*** * ***

(٩)

سيادة الرئيس..

تحيةٌ طيبةٌ وبعد، لم أكن أنوي الكتابة لك أبدًا، ولم يطف بذهني أنني يومًا ما قد أوجه خطابًا للرئيس لكنني - يا سيدي- بالنيابة عن كل هذا الجيل قررتُ أن أحدثك عن الحياة مِن هُنا، وأن أمنحك فكرة عن الدركِ الأسفل من العيش والذي على ما يبدو لي أنَّ سيادتك لا تعلم عنه شيئًا.

الناس هنا -يا سيدي- يذبحون بعضهم البعض، هذا الأب قتل ثلاثةً من أبنائه أول أمس، وهذه السيدة ألقت وليدتها من الطابق الخامس لأنها لم تعد تملك مصاريف علاجها، وهذا الشاب ترك زوجته ومضى هربًا من المسؤولية، الحياة هنا صعبة، والناس تأكل بعضها بعضًا، والأسعار في ازدياد مُتسارع جنوني لا نكاد نلحق بها أبدًا.

سائق الحافلة التي أستقلها كل صباح، رفع تسعيرة ركوبها ثلاثة جنيهات مرة واحدة وعندما سألته عن السبب نظر لي في دهشة، ثم حدثني عن الغلاء الفاحش للوقود، وبائع الخبز الذي كان يمنحنا كل يوم ثلاثة أرغفة، منحني اليوم نصف رغيف وعندما سألته عن السبب حدثني مندهشًا عن غلاء الدقيق.

الغاز والكهرباء والمياه يا سيدي، تخيل أن أسباب الحياة هذه والتي تُقدم مجانًا في كل بلدان العالم عجزت ماهيتي عن سدادها، لا أحدثك عن رفاهيات الحياة، ولن أحدثك عن الجُبن واللحم فمثل هذه الأشياء ترفٌ لا قبل لنا به..!

لن أحدثكَ عن تأخير زواجي مثلًا رغم أنني شابٌ يملك من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا، لكنه لا يملك مسكنًا يؤهله للزواج فيه، هل فكرت فعليًّا في هذه الكارثة؟! هل طاف بخاطرك أنني رغم هذا التطور الهائل الذي نعيش فيه لا أملك مسكنًا يصلح للزواج به؟

***

سيدي الرئيس

اعذرني، لكنني تخرجت من الجامعة بتقدير ممتاز منذ ١٠ سنوات، لمَ لم يتم توظيفي حتى الآن؟! عندما حكيت لصديقي السويسري أنني لا أملك وظيفة، وأرغب في البحث عنها خارج البلد، ظنها مزحة، وعندما أكدت له الأمر ظل يضحك لعشر دقائق متواصلة متسائلًا أيوجد شاب في العالم لا يملك وظيفة ثابتة رغم إنهائه للدراسة بمعدل ممتاز؟!

سيدي الرئيس، كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، هذا أمرُ النبي *مُحمد*، وها أنا أحد رعاياك المطحونين سيدي، فضلًا التفت لأزمتي ولأزمة الملايين مثلي، لا أقلل من جُهدك الكريم لكنني متعجب من ديدنك في مسيرة التنمية، المنظومة الصحية أهم من بناء المدن وإنشاء الطُرق، والدتي لا تملك سريرًا في مشفى مُعالجٍ للسرطان، ومرات كثيرة حُرمنا جرعةَ العلاج لأننا لا نملكُ ثمنه!

ولأننا جِياع فرغيف من الخبز عندي أهم من مئة طريقٍ مُمهد، هل جربت أن تقضي ليلك جائع يا سيدي؟ أحط درجات الإنسانية أن ينام المرء بمعدة خاوية وإحساس قاسٍ بالجوع، حتى الحيوانات لا تشتكي ذلك، ويؤسفني أن أخبرك أننا بِتنا أحطُ دركًا من الحيوانات، القوي هنا يأكل الضعيف، والسيد يسحق العبد، وصاحبُ العمل يطحن بحذائه العامل، إننا في غابة لكن للأسف لا أسود فيها، فضلًا كن أسدًا أو أفرِغ مكانًا للأسود!

اليوم اختبأتُ ثلاث مرات، مرة من صاحب البقالة ومرتين من رجل صالح يقرضني علاج والدتي، أيليق هذا بشاب في منتصف الثلاثين، أيليق هذا ببلدٍ تحكمه؟! قرأت مرة عن وزارة الإعلام وما تستحوذ عليه من نصف ميزانية الدولة! الأمر مُرعب أليس كذلك؟ أن يُنفق هذا الكم الهائل من المال على دراما تُلَمِع عديمي الأخلاق، وتجعل من البلطجي حاميًا للحِمى؟

سيدي، قد أطلت عليك لكن اعذرني، متى سَيسدُ ديني، ومتى ستملك والدتي سريرًا في المشفى، ومتى سأملك وظيفة مناسبة براتبٍ يليق بتقديري بلا واسطة أو رشوة؟!

متى سأنام بمعدة ممتلئة، ومتى سأفتخرُ بجنسيتي المصرية أمام صديقي السويسري، ومتى سأمتلك مسكنًا لائقًا بدلًا عن عشة الدجاج التي تحتويني فوق السطح؟! ومتى سأتزوج وأنجب أطفالًا لا أخشى عليهم الجوع؟ إنها أبسط مطالبنا، أن تُسدِلَ علينا حظًا وفيرًا من العدل والسلام، ألَّا يكون هناك سادة وعبيد، أو طبقة تخنقها الرفاهية وأخرى يشنقها حبل الفقر.

وتفضل بقبول وافر الاحترام والتقدير.

* * *

(١٠)

صباح الحزن يا أمي..!

هذه هي رسالتي الأولى إليكِ، لا أدري ماذا سأكتب لكِ فيها، مليئة أنا بالمشاعر لكن عاجزة عن تحويلها إلى كلمات تصلح لأن تقرأها عيناك الناعسة وتراها ملامحك الطيبة، عمومًا يقول الناس بأنكِ قد توفيتِ أول أمس، ولستِ هنا لأسألكِ هل حقًّا رحلتِ بغير عودة، أم أن هؤلاء القوم يكذبون عليّ؟! فضلًا قولي إنهم يكذبون عليّ.

إلى أمي الطيبة دائمًا، لقد مر على غيابك ثلاثة أسابيع، للأسف تيقنتُ بأنكِ قد رحلتِ للأبد، غرفتك - الفارغة وخزانتك التي امتلأت على غير العادة بملابسك وعطرك وحقائبكِ، مطبخنا الذي لم ينضج فيه خبزٌ أو طعام منذ أسابيع، أبي الصامت دائمًا، وصوتك المختلط بضجيج أوانيك الذي لم نعد نسمعه، كل هذا أكد ما يقوله الناس عنك.

أمي الطيبة، هذه هي رسالتي العاشرة إليك، حتى هذه اللحظة لم أزر مقبرتك كما يفعل أبي وأخي *وليد* - اللذان لم يفوتا زيارتك بشكل أسبوعي، لا تغضبي مني، يؤذيني تخيل أن جسدك الحبيب يرقد هنا، وأننا بعد كل السنوات التي قضيناها معًا ما بين ضحك وحزن وحب وشجار قد أنهيتها بهذه الحفرة الضيقة التي تفترشين فيها وحدكِ تراب الأرض.

إلى الحبيبة التي لم أكن لأذهب إلى أول *اختبار دراسي* لي بعد رحيلها دون أن أقبل يدها ورأسها طالبة - منها الدعاء لي، ساقتني قدماي إلى مقبرتك -دون أن أدري- صباح اليوم، قبلتُ مقبرتك، وبكيتكِ كما لم أبكيكِ من قبل، قلت لكِ: إنه يوم امتحاني يا أمي، قضيت الليل كله قلقةً وحدي، لا أحد هنا ليربت على كتفي أو ليدعو لي، لا أحد هنا يغرقني باتصالاته ليطمئن عليّ، لا أحد هنا يقدم لي طعامًا ساخنًا ونومة هنيئة لأكمل اختباراتي في هدوء، بعد الاختبار لم أكن لأذهب رأسًا إلى البيت فأحد أفراد العائلة بات يسكن المقابر الآن ولا بدَّ من الذهاب إليه لأطمئنه أو ليطمئنني هو!

لقد نجحتُ يا أمي، بتقدير دراسي ساحق، الجميع انهال عليّ بالمباركات والتهنئة، شخص واحد فقط لم - يظهر ولم يبارك لي، إنه أنت! لأول مرة يسبقكِ الجميع وتتأخرين، لأول مرة أيضًا يفرح لأجلي من أحب لكنني لا أفرح لأجل نفسي معهم، أيعقل أن أبتهج بنجاحي بينما أنتِ وحيدة في قبرك؟!

إلى العزيزة أمي، لقد مرض أخي وليد، وألهبت الحمى جسده، أنه ينادي باسمك طوال الليل، يقول إنكِ - خذلتيه وذهبتي دون أن يعتذر منك على شجاركما الأخير، يقول إنكِ -ولأول مرة- تغلقين باب غفرانك في وجهه دون أن تفتحيه أبدًا يا أمي، هل حقًّا لم تغفري لوليد؟!

أووووه يا أمي، ماذا أفعل لقد تزوج أبي بالأمس..! -

إلى الطيبة دومًا والنقية دائمًا، هذه رسالتي الخامسة والسبعين إليكِ، لقد حلمت بكِ البارحة، كنتِ تتشحين - بالبياض، قلتِ لي* أحبي زوجة أبيكِ.. إنها أمكم الثانية!* عظيمةٌ أنتِ دائمًا تصلحين ما أفسدته الحياة فينا حتى لو لم تكوني هنا، بالمناسبة لقد جاءت إليَّ زوجة أبي صباح اليوم وطلبت مني أن نذهب سويًّا لزيارتك!

إلى البعيدة جدً والقريبة جدًّا جدًّا، لقد سافر أخي وليد اليوم، لم تكن حالته على ما يرام أبدًا، قبل سفره - غادر المنزل لثلاث ساعات متواصلة، وعاد بعينين متورمتين من البكاء وملابس ملطخة بالطين ثم أخبرني أنه زرع بعض *الورود* إلى جانبك، واستحلفني أن أسقيها دائمًا يا أمي، *وليد* طيب ونادم ويحبك فهلا سامحتِه؟!

إنه عيد الأم يا أمي، الجميع يحتفل بأمه إلَّا أنا، الجميع يعانق أمه ثم يقدم الهدايا ويوزع العطور، أما أنا - فحبيسة جدران غرفتي، أخشى أن يلمح أحدهم دموعي فيتوهم أنني أغار منه، وأستكثر عليه فرحته بوجود أمه!

ملحوظة: لقد صادقتني زوجة أبي، إنها امرأة طيبة.. لكنها أبدًا لن تملأ الفراغ الذي تركتيه فينا.

إنه يوم زفافي يا أمي، وهذه أنا *عروس* الليلة، لقد جاءت اللحظة التي تحاشيت تخيلها طوال السنوات - السابقة، عروس وحيدة بلا أم تحتضنها وتقف إلى جانبها، يا أمي، ذهبت إلى قبرك صباح اليوم، كنتُ بحاجة ماسة لاحتضانك لدرجة جعلتني أحتضن مقبرتك لساعتين متواصلتين، حدثتك كثيرًا عن تصوري المبهج لهذا اليوم لكنه للأسف ظل مجرد تصور، وشكوت لك غياب وليد الغارق في حزنه لدرجة أنه لم يأت ليشهد زفاف أخته الوحيدة، وحدثتك عن ملابسك القديمة وأشيائك التي جلبتها إلى شقة زوجي لتشعرني أنك دائمًا معي، في النهاية أخرجت من حقيبتي خاتمًا ذهبيًّا لطالما أخبرتني أنكِ ستهديني إياه يوم زفافي كما أهدته جدتي لكِ يوم زفافك، ألبسته لنفسي ثم سقيتُ زهور *وليد* الغائب ورحلت..!

ابنتك العروس الحزينة والوحيدة..*رؤى*.

* * *

(١١)

السيدات والسادة..

الأحرار والعبيد، أصحاب البيوت والأوطان والمغتربين ممن لا بيوت أو أوطان لهم، أحدثكم الآن بصفتي لاجئ سوري، ولا أعرف لنفسي صفة أخرى أكتبها لكم، ربما لو كنت في ظرف أفضل أو في حال أرحم من حالي الآن لكتبت لكم كأي طفل عادي، طفلٌ يرهقه تأخير حافلة المدرسة -مثلًا- فيصل إليها متأخرًا كل يوم فلا ينجو من عقاب مدرسيه أبدًا، أو ربما كانت مشكلتي العصيبة أن أمي لا تسمح لي باللعب غالبًا مع أطفال الشارع لأنها تخشى عليّ من نسمة الهواء كما كانت تقول دائمًا، ربما شكوت إليكم تدليل أبي الدائم والمستفز للصغيرة *بنان* والتي تتفوق عليَّ دائمًا في معاركنا البسيطة حتى لو كانت هي المخطئة..!

ربما كتبت لكم عن أستاذي العظيم *أدهم* الذي ادّعى كذبًا أنه هو من وجد نقود زميلي *عبد الرحمن* فمنحها له من ماله الخاص، ثم أخبرني لاحقًا أن المسلم لا يسرق أخاه المسلم أبدًا، وإنني تلميذه المفضل دائمًا رغم سرقتي لمال عبد الرحمن، وادّعائي الكاذب لعدم علمي به.

أو ربما كتبت لكم عن جدتي الجميلة وحكاياتها التي تقصها عليّ كل ليلة قبيل أن أنام، أو عن جدي الطيب الذي يعلمني القرآن كل مساء حتى يحفظني الله به، وعن سورتيّ *يوسف ومريم* التي يطلب مني أن أقرأهما له كل ليلة لأنه يحبهما.

قصص جميلة وحكايات كُثر كان من الممكن أن أكتبها لكم فتسعدون بها أو أقصها عليكم فتغبطونني على منزلي الجميل الواسع المليء بالنور والحياة أو على عائلتي الطيبة التي اختصني الله بها رغم تشريد ملايين الأطفال في كل أنحاء العالم، ربما حسدتموني على حافلة المدرسة المتأخرة، فآلاف من الأطفال يذهبون إلى المدارس على أقدامهم وآلاف آلافٍ من الأطفال لا يذهبون إلى المدارس أصلًا، ربما كتبت لكم عن *بنان* فقلتم يا لحظه السعيد، لديه مدللة صغيرة يحبها ويلعب معها، أو عن جدتي فتطلبون مني أن أقص عليكم بعض حكاياتها النبيلة التي تقصها عليّ.

لكن شاء القدر أن أحدثكم كطفل منكوب أو ربما كشيخ راشد يكتب رسائله عسى أن تلتفت إليه أنظار العالم، فيرحمون طفولته أو ترق له منصات حقوق الإنسان فتشفق على كهولته المبكرة!

تبدأ قصتي منذ زمن ليس ببعيد، زمن كنت أعيش فيه كما ينبغي أن يعيش البشر، طفل عادي يحب عائلته ولم يطف بخاطره أبدًا أن يبتعد عنهم يومًا ما، يحب أصحابه في الجوار ولم يتصور أبدًا أنهم سيقتلون أمام عينيه ذات صباح، ويشعر أن قرابة وثيقة تربطه بكل أشجار الحي لأنها خبأته خلفها كلما لعب الغميضة مع رفاقه.

طفل يحب فطور يوم الجمعة لأن أسرته كلها تجتمع على مائدته فلا يغيب منهم شخص واحد، وهو المتعلق جدًّا بكل أفراد أسرته، طفل يحب البحر وأمواج البحر وكل من يجلس هادئًا يتأمل البحر لكنه في النهاية غدر به يوم أن غرق أحبابه فيه أمام عينيه.

طفل عادي يحب السماء، وسعة السماء، وزرقة السماء لكنها خذلته جدًّا يوم أن صعد كل أحبابه إليها فلم يعودوا أبدًا، طفل يحب كل جدات العالم لأنه يظن عبثًا بأنه سيعثر فيهم على جدته يومًا ما، ويتلو باكيًا سورة يوسف برًا بجده الراحل لكن عينيه لم تبيض من الحزن كيعقوب، طفل تربطه قرابة وثيقة بكل طبيبات العالم لأن والدته كانت واحدة منهن يومًا ما.

بدأت القصة يوم أن وصلت حافلة المدرسة في ميعادها المناسب لأول مرة، ربما لأنني ألقي اللوم عليها دون مبرر فقررت أن تعتذر مني في لقائنا الأخير، أو ربما لتصب جام غضبها عليَّ لأنني أحملها إثمًا لا ذنب لها فيه، كنتُ أول من يغادر الحافلة، ويركض إلى المدرسة لأنه أخيرًا سيشهد طابور الصباح الذي يُحرم منه عنوة كل يوم، غير منتبه لسباب *عبد الرحمن* الذي يخبرني بأنه سيخاصمني حتى آخر العمر لأنني وكزته في خلال هبوطي من الحافلة وانطلاقي إلى المدرسة، لكن عفوًا أين المدرسة؟ أرى جدرانًا مهدمة وأبنية يتصاعد منها الدخان والغبار، وأسمع أنينًا خافتًا يدعوني لأقترب، كابوسًا فظيعًا أرجو من الإله الرحيم أن ينتشلني منه لكن صوت انفجار حافلة المدرسة من خلفي أنبأني أن الواقع أحيانًا قد يكون أفظع من أي كابوس.

أين الحافلة، ولماذا صمت فجأة سباب *عبد الرحمن*، وما الذي حل بالمدرسة في هذا الصباح الباكر، ومَن صاحب هذا الأنين المنبعث من تحت الأنقاض؟ إنني أعرف هذا الصوت جيدًا، إنه ذات الصوت الذي ربت على كتفي مسبقًا ليخبرني أن المسلم لا يسرق أخاه المسلم أبدًا، ورحت أحفر الأنقاض في سرعة وشراهة غير آبه بالدماء التي تتناثر من يدي حتى ظهرت من بين التراب عينين لطالما طمأنني صاحبهما، وراح يهتف في وهن *انصرف حتى لا تصاب بأذى*.. يا الله ما كل هذا الأذى؟!

وهكذا رحل معلمي وهو يوصيني أن أنتبه لنفسي حتى لا أصاب بأذى، ورحل عبد الرحمن الذي كان يتوعدني منذ لحظات أن يخاصمني حتى آخر العمر، أيعقل أن يصل آخر العمر سريعًا يا عبد الرحمن هكذا؟ والله لو علمت هذا لاسترضيتك وما تركتك إلَّا وقد عفوت عني.

لم تنتهِ القصة، عُلقت الدراسة حتى إشعار آخر، ودفن الموتى بلا نعي أو جنازات وكأنهم خراف أو قطيع دجاج، واعتقل أبي مع مَن اعتقل، والتزم الناس بيوتهم حتى لا يذبحون في الشوارع أو يساقون إلى المعتقلات، وكسى الحداد وجوه الناس لشهور أو ربما لسنوات قادمة، وانقطعت المياه والكهرباء لأيام متواصلة وفاحت رائحة الدماء في كل مكان، وذات مساء وبينما نجلب المياه من المحطات العمومية عدنا إلى المنزل فلم نجده..!

تمامًا كما حدث مع المدرسة، نفس المشهد يتكرر للمرة الثانية، طفل مشدوه منكوب يبحث عن بيته فلا يجد سوى كومة أنقاض ينبعث منها الدخان والغبار والأنين، وللمرة الثانية يحفر في الأنقاض بيديه الداميتين ليخرج جدته التي طلب منها منذ دقائق أن تستريح في البيت لأنها لا تقدر على جلب المياه، أرادت العائلة راحتها فألزموها البيت لكنهم -دون قصد- قتلوها، لم تلمع عينيها من بين الأنقاض هذه المرة رغم الحفر المستمر وبكائي الدائم، ورغم صريخ *بنان* الهستيري، لم تظهر جدتي وهي التي كان يؤذيها أن يبكي أي منَّا للحظة واحدة!

قوارب النجاة، أو قل قوارب الموت، آلاف يصطفون على الشواطئ في طوابير الانتظار أو ربما طوابير الغرق، رجال ونساء وأطفال يرتسم الموت على ملامحهم على بعد خطوات مني، وجدي يجلس يبكي إلى جانبي كطفل فقد أمه، وذاكرتي مزدحمة بصورة عبد الرحمن الغاضب ومعلمي الطيب وجدتي وأنا أطلب منها أن تنتظر في البيت حتي ننتهي من جلب الماء، وأبي الرابض في سجنه بلا تهمة أو جريرة، أرسلت له

رسالة أخيرة لا أعرف هل وصلته أم ضلت طريقها هي الأخرى لكنني استودعت الله رسالتي، وأرجوه ألَّا تضيع وديعتي عنده.

البحر الهائج يبتلع المئات من حولي، ينقلب القارب أمام عيني فلا أرى لمن فيه أي أثر، أناس يصارعون الأمواج والموت معًا لكن الموت ينتصر في كل مرة، أنتظر هَلِعًا دور قاربنا لكنني أدعو الله أن ينجيني منها ومن كل كرب لكنه لحكمة يرد دعائي، يا رب إن كان القادم قاربنا فاحفظ أهلي واقبلني قربانًا لهم.

وانقلب القارب كنت أصارع الموت مع من حولي رغم رغبتي الجادة بالموت منذ دقائق، كان جدي أول من هزمه الموت، ثم تبعته أمي هي وآخرون ممن لا يجيدون السباحة، كانت توصيني أن أنتبه لبنان، وتدعو لنا أن نتعثر بأبي، وترفع بصرها إلى السماء سائلة بصوت صارخ يا رب، هل دعاء الغريق مُجاب؟! لم تقل شيئًا آخرًا لكن عينيها قالت كل شيء.

مخيمات اللاجئين، خيام ضيقة شحيحة الهواء، ترقد بنان المصابة بالهذيان والحمى في إحداها، تنطق كلمات كثيرة مبعثرة، تنادي فيها على الراحلين فأجيبها وحدي، تسألني عن أبي فأرفع بصري إلى الله وأسأله يا رب، هل لا زال أبي وديعة عندك؟ تسألني عن أمي لمَ لا تمرضها وهي التي كانت تمرض كل المرضى بمشفى الحي، تسألني عن جدي وجدتي لمَ لم يأتوا ليطمئنوا عليها، ولماذا لم تحكِ لها جدتي حكاية الأرنب الذي نجاه الله من الموت بمعجزة، ولماذا لم يقرأ جدي عليها سورة يوسف فتضحك لأن الله جمع شمل الشتيتين بعدما تشتتوا في الأرض، تخبرني أنها رأت كابوسًا بشعًا ماتت فيه جدتي بعدما تهدم عليها البيت، وغرق فيه جدي وأمي أمام عينيها، فأبكي لكنها تبتسم لأنني أيقظتها من الحلم قبل أن تموت بسببه.

أقضي الليل باكيًا وحدي أطلب من الله أن يحفظ لي *بنان* يا رب اشدد بها أزري وأشركها في أمري، يا رب لا أريد أن أمضي الباقي من عمري وحدي، ليس من العدل أن تنتهي عائلتي في غضون أيام قليلة وكأنها لم تكن بالأمس، لكن في الصباح أدفن الصغيرة أيضًا وحدي، يسألونني أين أريد أن يقيموا لي خيمتي، فأطلب منهن أن يقيموها إلى جانب قبر بنان، آخر من تبقى لي من العائلة، الشيء الوحيد الذي يربطني بالماضي، ويؤكد لي أنني لم أخلق وحيدًا مشردًا كما أظن.

تخيلوا أنني يومًا ما كنت أمتلك بيتًا وأهلًا وحياة، لكنني اليوم لا أمتلك أي شيء سوى دموع أذرفها على قبرٍ صغيرٍ أتخيل أنه لا يضم بنان وحدها وإنما يضم جميع الراحلين،

ننام جوعى لأيام، وتوشك يدي أن تمتد على كسراتِ خبز أمام الخيمة المجاورة لكنني أتذكر رجلًا يخبرني أن المسلم لا يسرق أخاه المسلم أبدًا، فأقرر الموت جوعًا حتى لا أخذل الرجل في قبره، وأنام متجمدًا من البرد فأحلم بأمي تحول بيني وبين لعب الشارع لأنها تخشى عليّ نسمة الهواء، وأشتكي الصغيرة بنان لأبي لكنه يقرر أن يعاقبها لأول مرة فأستيقظ مرتعدًا لأجد الصغيرة ترقد وحيدة في قبرها وأبي لا زال في سجنه.

أحلم بمنزلنا وقد رجع إلى هيأته الأولى، وبأشجار الحي يختبئ خلفها كل الصغار، وبأبي قد عاد أخيرًا، نستعد معًا كي نعود لبيتنا، فأبكي وأسأله هل سنترك قبر بنان وحده؟! فأستيقظ فزعًا لأجد بيتنا لا زال بالتأكيد كومة أنقاض لأن معظم أصحابه ماتوا فليس ثمة من يبنيه ثانية، وأن أشجار الحي عارية وحيدة لأن الصغار ماتوا أمام مدرستهم ذات صباح، ومن مات لا يعود أبدًا، وبأن أبي لا زال في محبسه أو ربما قد ذهب هو الآخر إلى قبره، قبر لا أعلم طريقًا له فأمتن للإله الذي هداني إلى قبر *بنان*، ولم يضع جثمانها مع من ضاعوا.

أرفع بصري إلى السماء وأبكي، أطلب من الله الرحمة، أسأله أن يجمعني بأبي كي لا أموت قهرًا أو أُجن، يا رب، هل ما زال أبي على قيد الحياة؟ رده إليّ كما رددت يوسف إلى يعقوب، يا رب، وهن العزم مني واشتعل القلب شيبًا فارحم قلبًا صغيرًا شاب قبل ميعاد الشيب، يا رب، إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاكشف ما بي من أذى وآتني أهلي ومثلهم معهم رحمة من عندك وذكرى للعالمين.

إمضاء..

عجوزٌ سوري!

*** * ***

(١٢)

ما أتعسك حين تفعل كل ما بوسعك لكنك لا تصل إلى نتيجة، وحين تبذل كل جهدك لكنك تعود في النهاية محملًا بالخيبة، وحين تتحصن بالأمل وحسن الظن لكنهما يتفننان في هجرك والفتك بك، ما أتعسك حين تكون جراحك مكتوبة على جبهتك فيقرأها كل عابر، وحين تسيل دماؤك في كل مكان ذهبت إليه فيعرف قصتك كل من عرفت ومن لم تعرف، ما أتعسك حين ينظر إليك الناس بشفقة لكنهم مع ذلك لا يرحمونك، وحين يحدثونك عن الأمل لكن أفعالهم تبث في قلبك أكوامًا من اليأس، ما أتعسك عندما يصل كل الناس إلى وِجهتهم لكنك الوحيد الذي يركض ولا يصل، حين يحقق كل شخص مبتغاه إلَّا أنت رغم أنك أكثرهم سعيًا، ما أتعسك حين تكون عقيمًا وما أتعسكِ حين تكونين عاقرًا.

لم يرزقني الله بأولاد رغم أنني تزوجت منذ تسع سنواتٍ، حياة غريبة، وتساؤلات قاصمة للنفسية، من طبيب لآخر، ومن عيادة لأخرى، ومن دواء يفتت المعدة إلى آخر يمزقها قطعة قطعة، أن تكونين عقيمًا معناه أن تموتين في العمر ألف مرة، عندما تقبلين طفلًا ينتزعونه من بين يديك خشية الحسد فتموتين، عندما يعرضون على زوجك تزويجه بأخرى فتموتين أيضًا، عندما يسألونك في كل تجمع نسائي العيب منك أم من زوجك تموتين ألف مرة، بعد كل اختبار حمل نتيجته سلبية، وبعد كل حيضة دعوتي الله في خلالها أن يروي ظمأ قلبك لكنه لحكمة رد دعائك، وبعد كل زيارة لأطباء يخبرونك كاذبين إن علاجكِ عندهم مضمون مئة بالمئة.

يعرفك أطفال الشارع لأنك تسدلين الحب عليهم بلا مبرر، عسى أن تشبعين أمومتك المهدرة على اللاشيء، ويعرفك الأطباء في المعامل والمختبرات يقولون لك في كل مرة عسى أن تكون الأخيرة، فتبشرينا -إن شاء الله- لكنها لا تكون الأخيرة أبدًا، ويعرفك الصيدلي في أسفل العمارة لأنك تزورينه أكثر مما تزورين أهلك، ويعرفك الفقراء في الحي لأنك تسألين الله أن يداوي مرضك لأجل تصدقك الدائم عليهم، فيدعون لك بالبشرى لكنك لا تُبشرين أبدًا، يعرفك كل الناس لكن صغارك هم الوحيدون العاجزون عن معرفة الطريق إليكِ!

اليوم طلبت من *عصام* أن يتزوج بأخرى، عشر سنوات من الأرق والانتظار واللاشيء، يكفيه ما دفعه - من انتظار، ويكفيني أنا ما دفعته من خيبة، إن أتوا فمرحبًا بهم وإن لم يأتوا فقد انتصرتُ على أنانيتي وطلبت منه جادة أن يتزوج، كلما ازداد رفضه للزواج ازداد تصميمي على تزويجه، عصام طيب ويحبني، ويعاملني كطفلته لكنني لا أريده أن يصل لنهاية العمر وحيدًا، لا أريده أن ينظر حوله فلا يجد أحدًا سواي فيندم على ما ضاع من عمره لأجل إرضائي، إنني أحتمل زواجه بأخرى ولا أحتمل أبدًا أن ينظر إليَّ ذات يوم ثم يقول في نفسه *بقدر ما حافظتُ عليها ضَيعَتْني وبقدر ما أحببتها أحبت نفسها فقط*.

اليوم بكيت بكاءً مريرًا حتى كِدتُ أن أتقيأ قلبي، وانتحبت نحيبًا عظيمًا حتى أوشكت على الموت ومع ذلك - لم أمت، اليوم تزوج عصام بفتاة أخرى جميلة مثله، جذابة الملامح تمامًا كملامحه، في خضم مأساتي نسيت أن أحدثكم عنه، عصام رجلٌ في الخامسة والثلاثين من عمره، أرستقراطي المنظر، حلو القسمات، وجذاب الملامح، خلوق يضع اعتبارًا لكل ما يسمى بالعادات والتقاليد، ناجح في عمله، ويزن كل الأمور بميزان حساس ودقيق، له من حسن الخلق نصيب عظيمًا، وله من الحب في قلوب الناس نصيب أعظم منه.

فكرت مرارًا في الانفصال عنه قبيل زواجه بأخرى لكنني لم أجرؤ حتى على طرح الأمر عليه، إن الحياة من دونه مهمة مستحيلة ومن الحماقة أن أظن بأنني قادرة على تحقيق المستحيل، عصام الآن يقاسم امرأة أخرى الحديث والطعام والحب، وأنا هنا وحدي أتقاسم الوحدة مع نفسي، وأشارك وجعي مع الجدران، فأشعر أنها تبكي لأجلي، وأرفع يدي إلى السماء فأشعر بأنها تفتح الباب لدعائي أول مرة *يا رب.. ارحمني وارضِ قلبي وهبلي من لدنك وليًا*.. ويا لغرابة ما حدث، كأن الرحمة كانت في انتظار سؤالي عنها، وكأن الإله الرحيم قرر أن يواسي قلبي فعلًا.

رسالة هاتفية جاءتني على غير موعد ورحمة إلهية أرسلها لي الرحيم في الوقت المناسب..

مرحبًا، أنا لين زوجة زوجك، رغبت مرارًا في لقياكِ والحديث إليك لكنكِ لم تسمحي أبدًا بذلك، أكتب إليك * لأنني امرأة، وأدرك جيدًا شعور امرأة تزوج زوجها بأخرى لأنها لا تنجب، لكنكِ لا تدركين شعور فتاة تجاوز عمرها الأربعة والثلاثين فقبلت مرغمة الزواج -برجل تعلم جيدًا أنه يحب زوجته- حتى لا يُقال عنها عانس، تعلمين طبعًا أنني أكبرك بأربعة أعوام، وبالتأكيد تعلمين أيضًا أنك أجمل مني، وأنكِ حبيبته الأولى، وإنه لا حبيبة بعدك لأن زوجك ببساطة يبكي الآن في الغرفة المجاورة.

أختك *لين* إن قبلتي أن نكون كذلك.. *

ثلاثة أشهر مرت على زواج عصام حاول فيها مرارًا أن يعرفني على زوجته لكنني كنت أرفض في كل - مرة، اليوم عندما دق جرس الباب وجدتها هي من تطرقه، لم تقل شيئًا سوى أنها عَلِمت للتو بأمر حملها، فقررت أن أكون أنا أول من تخبره، لم أقل شيئًا بكيت كإنسان اكتشف البكاء للتو، فقرر أن يبكي كل ما فاته دون بكاء، ويا للعجب كانت الفتاة تبكي معي!

اليوم وضعت لين مولودها الأول بعد حمل مدته سبعة أشهر فقط، هاتفتني قبيل ولادتها، أخبرتني أنها - متعبة للغاية، وأنها تشعر بالموت يطرق بابها، كانت توصيني على الفتى، وتستحلفني أن أتق الله فيه إن غادرت الحياة وهي تضعه، كنتُ أول من يذهب معها إلى المشفى، وكنت أسأل الله من كل قلبي أن يحفظها وصغيرها، وأن يردها إلى بيتها سالمة، أخبرتها لأول مرة أنني أحبها، وأنها طيبة رحيمة، وأن الله في السماء يُنزِل رحمته على الطيبين في الأرض، أخبرتها أنني أحتاجها، وأننا أختان كما كانت ترغب دائمًا، فوعدتني إن خرجت سالمة من المشفى فسنعود سويًا على بيتي أنا لا بيتها، ولن يمرضها أحد سواي، كنت أعلم أن والدتها توفت منذ عام، وأن الفتاة مسكينة فعلًا، وأنها بحاجة إليّ وما كنت لأرفض قضاء حاجتها، عسى أن يقضي الله حاجتي.

اليوم أتم الصغير *أحمد* ثلاثة أعوام، لم يفارق فيها حضني سوى ليال معدودة يقضيها على مضد عند أخواله، إنه يحبني بشدة ولا يناديني إلَّا بـ ماما، تسألون عن والدته أليس كذلك؟ لين الطيبة تسكن في الشقة المقابلة لي منذ أشهر قليلة لأننا تصادقنا على غير العادة، ولأن الصغير يقضي معظم أوقاته هنا، الناس المُندهشة من حكايتنا يقولون إننا لسنا في الجنة! فأرفع بصري إلى السماء وأقول يا رب اهدِ قلبي.

أحلام متقطعة غريبة طوال الليل، لين تسأل الله في الحلم أن ينزل رزقه عليّ لأنني امرأة صالحة، وأمها - - التي لم أرها أبدًا- تدعو الله أن يقضي حاجتي كما قضيتُ حاجة ابنتها ذات يوم، وفقراء الشارع يقولون حان وقت البشرى وأن صدقاتي عليهم قبلها الله وسيكافئني لأجلها الليلة.

أما الصغير أحمد يجلس منزويًا لأنني سأحبُ طفلًا غيره فأحتضنه بكل قوتي فيصحو عصام فزعًا لأنني أعانقه هو.

آلام عظيمة تفتت معدتي منذ الصباح، وقيء مستمر لا أعرف سببه، واختناق تام يتبع كل رائحة شممتها، - لين تقف إلى جانبي مصدومة مندهشة بعدما كانت تجهزني للذهاب إلى المشفى، أسألها ألن نذهب للطبيب؟ لكنها تركض إلى الصيدلي دون أن أعرف السبب، كما توقعتم تمامًا، أمسك بيدي اختبار الحمل، وأصرخ حتى أكاد أفقد صوتي بينما لين في أقصى الغرفة تسجد باكية، تشكر الإله العظيم الذي أذهب عنَّا الحَزن، ومنحني طفلًا من غير حول مني ولا قوة بعد انتظار طالت مدته لأربعة عشر عامًا.

* * *

(١٣)

عزيزي المجتمع الأرعن..

لا أود الكتابة إليك لكنني مضطرة، ولا أحب نشر تجاربي على الملأ لكنني أكتبها تحديدًا لمن يعانون الاندماج فيك، ويسعون إلى الهرب منك، فتأكلهم الوحدة، وتلتهمهم العزلة كما التهمتني تمامًا.

متشددة.. رجعية.. لا تجيد لفت الانتباه.. غير مهتمة بمظهرها كأنثىٰ.. متوحدة.. وضعيفة! -

هذا ما ينعتني به رفاق العمل، رغم أنني أسمع همسهن به كل مرة إلَّا أنني لم أطلب من إحداهن التوقف عن إهانتي حتى الآن، كنت أصبر على ما يقولنه بشأني، ليس لأنهن محقات لكن الفارق الشاسع بين تفكيري وتفكيرهن لا يسمح بالخوض في نقاش طويل سأكون أنا الخاسرة حتمًا في نهايته، لأنني لا أجيد السخرية من الآخرين ولا الضحك من أحزانهم، ولا أجرؤ على طعن أحدٍ دون قصدٍ حتى لو طعنني هو عامدًا..!

آلاف من الرسائل السلبية سببها لي هذا المحيط، وعشرات من الانتقادات غير الحقيقة وجهتها لي هذه البيئة، ويا لبؤس هذا الشعور، أنك غير مقبول في محيطٍ أنت مضطر إلى القبول به، وأنك تستحق التقدير والحب ولكن ليس بإمكانك أن تدفع من لا يجيدون الفهم والتقدير إلى ذلك.

لا أحـــد يـحبنـــي..! -

حتى أنا نفسي لم أعد قادرة على ذلك، حديثي مزعج ربما لأنني لم أتبادل النميمة مع الرفاق، ودمي ثقيل ربما لأنني لم أبادر للضحك معهم على ضخامة أنف فلان، وشخصيتي ضعيفة لأنني تركتهم يسخرون مني ولم أهتم، وإرهابية رجعية متشددة لأنني أذهب للصلاة مهما كانت حدة العمل.

إلى أن جاءت *رتيل* صديقتنا المستجدة في المصلحة، ذات صباح لمحتها تقرأ عن *مالك بن الريب* فأجرينا حديثًا مطولًا عنه، وتحدثنا عن *قطري* و * المهلب* هل كانا صديقين حميمين في صباهما فعلًا، واندلعت بينهما الحروب عندما كبرا، أم أن هذه مجرد حكايات..؟!

واتفقنا على أن *جين إير* هي ألطف حكايات الأدب الغربي، وتساءلنا هل نَصفَ التاريخ *الحاجاج بن يوسف* أم أنه افترى فعلًا عليه؟ ولماذا لم يدرسنا أحد قصة *أحمد بن نصر الخزاعي* رغم كونها أقسى قصة في التاريخ؟ ويا للعجب لقد أنصت جميع الرفاق للحديث الدائر، وأبدوا تفاعلهم معه رغم سخريتهم من حديثي المعقد سابقًا..!

رتيل* أيضًا تذهب للصلاة مهما كانت حدة العمل، وتهتم بمظهرها كأنثى دون أن تضع على وجهها أكوامًا * من الأصباغ والدهانات، ولا تشارك في النميمة على أحد لأن كلنا عيوب على حد قولها، وترى أنف فلان جميلة لأنها من صنعِ الله، كيف للمرءِ أن يكره صنعَ الله؟! وشخصيتها قوية لأنها صرخت فيهم يوم أن جعلوها محور حديثهم فاعتذروا منها..!

لقد علمتني *رتيل* درسًا مفاده أنني يجب أن أكون لطيفة لكن فقط مع من يستحق هذا اللطف، ويجب أن أكون طيبة دائمًا لكن بشرط ألَّا تُستغلَ طيبتي للتقليل من شأني، وأنني يجب أن أعلن مبادئي النبيلة حتى لو لم تكن تناسب هذا المجتمع عديم المبادئ، وأنني أستحق الحب حتى لو دفعني المجتمع دفعًا لكره نفسي، وأن الصمت يفوز دائمًا لكن مهما حدث يجب ألَّا أصمت عن حقي أبدًا.

- عزيزي المجتمع الذي أتواجد فيه رغمًا عني، أنا لست متوحدة أو ضعيفة، أنت من تحيطني غالبًا بأناسٍ لا يليق بي أن أكدر بهم صَفوي، أو أن ألوثَ بهم محيطي، لكنني أفاجِئك أخيرًا، قبلت التحدي منذ هذه اللحظة.

* * *

(١٤)

إلى من يتلاعبون بأعراض الغافلين، ألا يُرعبكم تسديد الدين يومًا ما..؟

إلى من يرمون الناس بغير حجة، ويؤذونهم بغير سبب، إلى من يتهافتون على إيذاء الخلق وتشتيت الناس، إلى من يسعون إلى تخريب حياة غيرهم، وتفريق شملهم، وتفتيت جمعهم، إلى من يقحمون أنوفهم في حياة الغير، وألسنتهم في أعراض الناس...

في حياتي السابقة كنتُ آية في الجمال، بياض شاهق، وشفتان مكتنزتان قليلًا، أنف دقيق، وعينان - واسعتان، بالإضافة إلى وجنتين محمرتين على الدوام، يكاد الدم يطفرُ منهما إذا ما أخجلني أحد أو آذاني قول ما، هذه أنا *مريم علي هارون*، فتاة في الثانية والعشرين من عمرها، لم يتبق علي تخرجها من الجامعة الألمانية بالقاهرة سوى أشهر قليلة، عفوًا، ليس الأمرُ كما فهمتَ، فأنا لستُ ابنةً لأحد رجال الأعمال أو أرباب الشركات والبنوك!

قبل أعوام عديدة ولدتُ أنا وأخي التوأم لأسرة فقيرة جدًّا، حُرِمت من الإنجاب لسبعة عشر عامًا، لكنها لم تيأس أبدًا من روح الله..! وأخيرًا جئت أنا وأخي *هارون* فجأة وعلى غير موعد ومن دون انتظار، لدرجة أن أمي لم تنتبه لحملها إلَّا في شهرها السابع، وهو ذات الشهر الذي خرجت فيه للدنيا مع أخي الوحيد هارون*، ويبدو أنني كنتُ مثالًا للأنانية في بطن أمي، فولِدتُ أنا بأطرافٍ كاملة كما الأطفال تمامًا، وولِدَ * هارون* بلا ساقين وبيد واحدة! *

لم أحب في الدنيا أحدًا كأخي، ودِدت كثيرًا لو منحته إحدى يداي أو حتى قدماي الاثنتين، لم أشعر تجاهه بالإخوة أبدًا، فقد كانت لمشاعر الأمومة في قلبي اليد العليا، فبتُّ أعامله وكأنه طفلي الصغير، لا مجرد أخي.

في الثامنة من عمري، أذكرُ جيدًا تلك المرة التي وضعته فيها في حقيبتي المدرسية بدلًا عن الكتب لأنه أخبرني أنه يتوق شوقًا لرؤية *المدَرسة*، لن أحدثك عن باقي تفاصيلَ اليوم فبالتأكيد سيادتك توقعتها جيدًا، ولن أخبرك ماذا أطلق زملائي بالصف على أخي ولا بأي الألفاظ نعتوه، دعني أخبرك فقط أنهم ركضوا خلفي قبل أن أصل به إلى باب المدرسةِ، التي شُغفَ هو برؤيتها فأخذته معي خلسة عن أمي!

ولم ينتهِ اليوم على خيرٍ أبدًا، فقد مد بعض الأولاد أيديهم ليتحسسوا وجهه، وليروا بقية جسده فتمزقت الحقيبة، وسقطت بحملها الثمين على الأرض فشُجَت جبهته وجُرحت شفته، فبكيتُ ولم يربت على كتفي سوى *هارون* بكفه الصغيرةِ والوحيدة، ومنذ ذلك اليوم لم يرَ *هارون* الشارع أبدًا، ولم يغادر البيت قط، برغم محاولاتي المستمرة والمستميتة لإخراجه من دائرة الوحدة التي أحكم غلقها على نفسه، فحتى وسائل التواصل الاجتماعي نأى بنفسه عنها بعد أن أنشأتُ له حسابًا فيها ليطل من خلاله على العالم.

أووووه لقد انخرطتُ في الحديث عن *هارون*، ونسيت أن أحدثك عن أمي، امرأة صابرة بوجه ملائكي، سيدة مكافحة وشريفة تقضي ليلها في عجن الدقيق، أما نهارها فتقضيه في بيع الخبز والفطائر لمرفهي القرية، وإلى جانب ذلك لم تقصر لحظة في رعاية أخي.

أما عن أبي -نصيبي الحُلو من الدنيا وأحب الرجال إلى قلبي- فلك أن تتخيل مقدار محبته لي وخوفه عليّ بعد أن رزقه الله بي بعد صبر طالت مدته لما يقارب العشرين عامًا، هو الآخر رجلٌ مكافح وشريف، لا يقرأ ولا يكتب لكنه بدأ بتعلم القراءة والكتابة بالتزامن مع أول يوم لي في الدراسة.

ضاقت في وجهه جميع السُبل، وسدت أمامه كل أبواب الرزق قبل مولدي بأيام بعد أن بِيعت الشركة التي كان يعمل بها، فلم يجد أمامه سوى باب واحد ألا وهو *رابطةُ حَمّالي النقل الثقيل*، فانضم لهم أبي، دون أن يأبه لغضروف ظهره ولا لخشونة ركبته ولا عمره الذي قارب على الخمسين.

كان همه الوحيد أن يوفر أموالًا تكفي دواء هارون ومصاريف دراستي، لذا أخفيتُ عنه خبر وجع خفيف يزور ساقي من آن لآخر، كثيرًا ما سمعت أناته ليلًا، وكثيرًا كثيرًا ما رأيت بكاء أمي نهارًا لأن فطائرها كَسدت، فلم تبع منها شيئًا، فكبرتُ قبل أوان الكِبر، وعاهدت الله ألَّا ينقضي عمري قبل أن أرد جميل أبي وصنيع أمي، وقد كان!

بالتأكيد سمعت اسمي من قبل في أحد برامج التلفاز أو ربما قرأت عنه في وسائل التواصل الاجتماعي، سأكرره لكَ ثانية لعلك لم تنتبه له في المرة الأولى: *مريم علي هارون* نعم، أنا هي، أول الجمهورية للمرحلة الثانوية بتقدير مئة وواحد في المئة، وبعد سلسلة طويلة من الأحداث السعيدة لا أحبُ إزعاجكُ بسردها، فزتُ بمنحةٍ لدراسة الطب في الجامعة الألمانية.

أنهيت أعوامي الأولى بامتياز دراسي ساحق، بالإضافة لتفوق غير مسبوق في قسم الفنون، فقد كنتُ شغوفةً بمجاليّ الرسم والتصوير، ولولا رغبة أبي في أن أكون طبيبة لاكتفيت برغبتي في دراسة الفن.

قبل تخرجي بأشهر قليلة وبينما أنا أعبر إحدى الشوارع بالقرب من الجامعة إذا بسيارة مسرعة تصطدم بي شر صدمة، لجزء من الثانية اسودت الدنيا أمام عيني، فلم أرَ إلَّا الظلام الدامس، ولم أعد أشعر بشيء، بعد مدة زمنية لا أعرف قدرها فتحت جفني ببطء لأراني أرقد في فراش أبيض تقابله ممرضة وإلى جانبها يقف شاب ما، أعتقد أنني رأيته من قبل لكن لم أنجح في تذكر متى وأين.

لدقائق قليلة لم أستوعب ما الذي يحدث، مَن هذا الشاب، ومَن هذه الممرضة ،ولمَ أتوسط أنا هذا الفراش الأبيض؟!

لم يطل اندهاشي، تقدم إليّ الشاب وجلس على طرف الفراش، حاول أن ينطق بشيء ما لكنه صمت، وَقَفَ ثم جلس ثانية ثم وقف وبعد جهدٍ هتف بلسانٍ ثقيل:

أنا *ياسين عبد السلام*!.. وسكت. -

بعد دقيقة من الصمت هتف مجددًا بصوت يقطر أسى:

أنا من تسببتُ لكِ في الحادث. -

كنتُ أشعرُ أنني في حالة جيدة، وأنني بالفعل أتماثل للشفاء باستثناء ضماداتٍ كثيرة تلتف بعناية حول وجهي، فقلت بهدوء:

لمَ أنت منفعل هكذا، أعتقد أنني بخير حال يا سيدي. -

وبلا وعي برزت عروقه واحمرت وجنته وثُبِتتَ عيناه ناحية الجزء السفلي لجسدي، وتلقائيًا وضعت يدي على ساقي فلم أجدها، فأزحتُ الغطاء بفزعٍ وصدمة فلم أجد تحته سوى ساق واحدة!

لم أصرخ ولم أنفعل باستثناء دمعات هادئة انحدرت على وجنتي في هدوء وصمت، فقال مجددًا.

لولا الحادث لسرى الداء في جسدك بأكمله، حمدًا لله أننا سيطرنا على الورم قبل أن يغزو كل ذرة فيكِ، - حتى هذه اللحظة لا أعلم من أنتِ، فلقد استأثر أحدهم بحقيبتك في خلال الحادث طمعًا في ما تحويه الحقيبة، على كلٍ سأتكفل أنا بكافة مصاريفك حتى يعلم والدكِ بالأمر.

أووووووه.. والدي، من أين له بمصاريف علاجي، لقد كان يعجز عن إحضار دواء هارون رغم أن الدولة كانت تساهم بنصفه، كيف له أن يوفر مصاريف دوائي أنا، ومن أين له بثمن جلسات العلاج الكيماوي، فقلتُ بصوت متحشرج:

لا والد لي، لقد فقدتُ أسرتي في حادث سير وأنا في الثامنة عمري. -

آسف، ما اسمكِ؟ -

فقلتُ كاذبة:

آلاء، اسمي آلاء. -

قال بإخوة حقيقية وبمشاعر غير مصطنعة:

لا تحملي همًّا، أنا متكفل بكافة احتياجاتك من الآن وكأنني أخوكِ، سأفتحُ لدى المشفى حسابًا خاصًا بكِ، - وأضعُ فيه ما يلزمك من أموال لمتابعة علاجك، أما عن دراستك فسأحاول أن أحصل لكِ على إجازةٍ منها ريثما يتم تعافيكِ على خير.

دراستي؟! -

نعم، عندما صدمتكِ بالسيارة كنتِ تحملين بين ذراعيك بعض الكتب. -

لألالا، بالتأكيد هُيأ لك. -

فقال مندهشًا:

لكنك تتحدثين الألمانية!، تفوهتِ ببعض كلماتها فور خروجك من الجراحة. -

الألمانية! بالتأكيد هُيأ لك أيضًا، وهل أنت تجيد الحديث بها؟ -

نعم، إنني أستاذ مساعد بالجامعة الألمانية هنا، ومن المفترض أن أكون بألمانيا الآن لكنَّ ما حدث أجّل - سفري إليها لأكثر من ثمانية وأربعين ساعة، سامحيني على ما نقلته لكِ من أخبار، أراكِ على خيرٍ، فسفري بعد ساعات من الآن.

إذن هو *ياسين عبد السلام*، ابن رئيس الجامعة، وفتى الجامعة اللامع، كثيرًا ما سمعتُ حديث الفتيات عنه لكنني لم أكن أهتم لأمره مثلهن، فالفارق بيننا كالفارق بين السماء الأولى والأرض السابعة!

بعد مضي ثلاثة أسابيع من هذا اللقاء، جاءتني أحد الممرضات وبيدها علبة ذهبية الشكل والتي لم تكن تحوي بداخلها سوى هاتف أرسله إليّ السيد *ياسين عبد السلام* وكان أول ما فكرت فيه هو أن أهاتف أبي، لقد اشتقت إليه وسيفتكُ بي الحنين إليه إن لم أحدثه بشكل عاجل، بالطبع لن أخبره ما حدث، ولن أتحدث إليه، يكفيني أن أسمع صوته على الأقل، أمسكتُ بالهاتف، وضغطتُ على الأرقام بأصابع مرتجفة وقبل أن أؤكد الاتصال أتى الطبيب المكلف بحالتي، لا بدَّ أن ينزع جميع الضمادات عن وجهي الآن، وبفارغ الصبر طلبت منه أن ينجز عمله سريعًا وألَّا يطيل.

وبمجرد إزاحته لآخر ضمادة عن وجهي شهقت الممرضة في دهشة هاتفةً:

إنك نسخة من *مريم هارون* تلك التي تمردت على أهلها فركلت أسرتها جانبًا وفرت إلى ألمانيا مع شاب - ألماني تعرفت عليه في خلال دراستها الجامعية!.. لولا شحوب وجهك وهالات سوداء تحت عينيك وبعض ملامحك المتعبة البسيطة وعلمي أن اسمك *آلاء* لظننتك هي.

لم أنجح في استيعاب ما قالته الممرضة، كنت أشعر وكأنني في حلم أو ما شابه، بالتأكيد خانتني حاسة السمع فسمعتُ أشياء غير التي نطقتها المرأة، فتساءلتُ بصوت مبحوح:

عفوًا.. ماذا قلتِ؟ -

قلتُ أنكِ تشبهين *مريم هارون*.. الإعلام لا هم له سوى الحديث عنها، خاصة بعد شهادة زميلاتها - بفرارها مع شاب ألماني مما أدى لوفاة والدها إثرَ صدمته بما حدث!

أووووه.. مات أبي حسرةً عليّ! يا ليتني متُ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا، في نفس الليلة بكيتُ بكاء مريرًا لم أبك مثله من قبل، شعرت بالفقر والحزن وقلة الحيلة والقهر، ولم أعد أدري ماذا أفعل، أظل مجهولة كما أنا فيظل السيد ياسين متكفلًا بأمري، أم أبرأ نفسي وأعود إلى هارون وأمي، لكن ما فائدة البراءة مما نسبوه لي وقد مات أبي!

أمسكت بالهاتف، ورحتُ أجول بين صفحات الأخبار، فوجدت إعلانًا أرفقت فيه صورتي مع صورة أبي كُتب أعلاها *يا أختَ هارون، ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانت أمكِ بغيا* أنا في انتظاركِ يا ابنتي، عودي قبل أن يفتكُ بي اتهامهم لكِ، وقبل أن يقتلني حديثهم عنكِ.

والدكِ.

أما الإعلان الذي يليه لم يكن سوى إذاعة لنعي والدي، كتب فيه أحدهم: *لم يحتمل الرجل فضيحة ابنته التي لم يرق قلبها لنداءاته المتكررة ولترجيه عودتها على الملأ، فتوفي على الفور*.

أما عن حسابي الشخصي، فامتلأت منشوراته بين مُكَذب وشامت، بعضهم يؤكد أنني لم أفعل، والبعض الآخر يقسم أنني فعلت، لم أنتبه لما كتبوا، ولم أغامر بقراءة أي شيء سوى أشياء كُتبت من خلال صفحة تخص شخصًا اسمه *هارون علي هارون*..!

على مدار ثلاثة أسابيع لم يفوت يومًا لم يكتب على حائطي فيه.. قائلًا:

لقد قمت اليوم بتصفح مواقع التواصل الاجتماعي يا مريم، رغبة في البحث عنك، أتذكرين المرات * - الكثيرة التي تمنيتِ أن أتواصل فيها مع العالم لكنني كنت أرفض في كل مرة؟ عودي إليّ يا مريم، لا تتركيني أواجه هذا العالم وحدي*.

لقد خرجت اليوم إلى الشارع، للبحثِ عنكِ وليس رغبة في رؤيته، فنعتني أحدهم بابن العاهرة، فبادلته * - سبابًا بسباب فما كان منه إلَّا أن ركلني فشجت رأسي وجرحت شفتي، يبدو أن هذا العالم لا يجيد الترحيب بي إلَّا بهذه الطريقة، عودي يا مريم، لقد بكيتُ اليوم وحدي، أتذكرين المرة السابقة التي بكينا فيها معًا؟

أعلم جيدًا أنكِ في حاجة لأخ رجل تواجهي معه هذا العالم، لكن القدر قضى أن هذا الرجل خلق بلا * - ساقين وبيد واحدة ليكون هو في حاجة إليك ليواجه هذا العالم* عودي لهارون يا مريم، لا تتركيه بلا ساقين ويدٍ وروح!

لقد توفي أبي اليوم يا مريم، قبل أن يموت طلب منَّا أن نقول لك عند عودتكِ إنه يسامحك، ولم يسخط قلبه - عليكِ قط.

خُلِقتُ بنصف واحد، فبتِّ أنتِ نصفي الآخر، أما آن للنصفين أن يلتئما يا مريم؟!** -

بعد يومين كان *ياسين عبد السلام* قد وصل بوجه حائر وملامح متصلبة وبيده كراس أزرق أعرفه جيدًا، فلطالما صادقتُ ورقاته، ورحتُ أنثر عليه كل مذكراتي ومواقفي اليومية منذ أن كنت فتاة في السابعة، لم أنتبه لسؤاله عن حالتي أو لحديثه إليّ، ولم تُحِد عيناي عن الكراس بين يديه، ورحتُ أسأله عنه فما كان منه إلَّا أن قال لي إنها مذكرات لفتاة مفقودة عثرت عليها إحدى طالبات الجامعة، فسلمتها للإدارة وبعدها وصلت إليه، ولا أدري لمَ تملكتني رغبة عارمة في الحديث عن صاحبة المذكرات، فرحتُ أجفف دمعي، وأدور حول الحديث عنها حتى وصلتُ للنقطة التي أريد..

إنها مذكرات الهاربة مريم هارون. -

هاربة! -

يقولون ذلك. -

وماذا تقول أنت؟ -

مذكراتها تؤكد لي أنها لم تفعل.. حبها لأبيها.. أمها الطيبة.. وأخيها هارون.. أووووه إنني أحببتهم من - حديثها عنهم.. آهٍ لو عثرت عليها.. لكن أين ذهبت؟

ربما لم تذهب.. لكن أذهبتها -رغمًا عنها- ألسنة الناس! -

فقط لو عادت..! -

ماذا ستصنع؟! .. -

* * *

(١٥)

أعزائي البشريون على وجه الأرض، مَن ينظرون إليّ من أعلى لأنني لست منهم، ويركلونني بأحذيتهم لأنني نجس على حد قولهم، من يديرون أعينهم عني حتى لا تؤذيهم رؤيتي، ومن تشمئز نفوسهم إذا التقوا بي، وترتجف أبدانهم لأنني أشكل خطرًا على المجتمع البريء الطاهر..!

لا أدري من أنا فعلًا ولا فلسفة في ذلك، لأنني ببساطة لا أعرف عنها شيئًا، أنا أقل من البشر درجة وأعلى من الحيوانات بواحدة مثلها، أو ربما أقل من الحيوانات نفسها أو أقل من أي مخلوق خلقه الله، ربما أنا بشري درجة رابعة أو خامسة أو حتى عاشرة، ربما أي شيء آخر لكنني المهم لست أنسانًا أو جمادًا أو حتى حيوانًا يعطف الإنسان عليه، أنا مجهول النسب، مجهول الوضع، مجهول الماضي والمستقبل والحاضر، أنا لقيط.

أنا ضحية ذنب لم أقترفه، وثمن خطأ لم تجنه يداي، أنا ابن لأب خائن غادر، فاته ركب الرجال، وضحية أم قاسية مستهترة أغرقتني بكامل رغبتها وسط بحار اليأس، أنا ابن الشارع لأنه بكل قسوته أرحم من أمي، وقريب كل الكلاب الضالة لأنها الوحيدة التي تحنو عليَّ، وعدو كل الآدميين على وجه الأرض لأنهم بلا سبب يكرهونني، أرى أطفال المدارس صباحًا فأسأل الله أن أكون منهم ذات يوم، وأتأملهم في طريق العودة فأتمنى أن يصبح لي بيت أعود إليه ذات مساء، وأدعو الله دائمًا أن أتعثر بأهلي لكنهم يدعونه دائمًا ألَّا يتعثروا بي، فأنا خطيئة!

أعزائي البشر على وجه الأرض، للتو حدث شيء غريب لدرجة جعلتني أظن بأنني أحلم، للمرة الأولى - في حياتي يمسك أحدهم يدي، للمرة الأولى أيضًا يلمسني بشر ويحدثني إنسان، للمرة الأولى أشعر أنني واحد منكم، آدمي مثلكم.

ملاك* قالت لي إن هذا هو اسمها بعدما أنقذتها من كلاب الشارع والتي أوشكت على الفتك بها منذ * لحظات، فتاة طيبة سميت باسم يليق تمامًا بها، تكبرني بأربعة أعوام، ويفصلها عني مجتمع وعادات لكنها حدثتني بعفوية لم أُعامل مسبقًا بها، وشكرتني بأسلوب لم أتعرض أبدًا لمثله، سألتها هل سأراها ثانية فمسحت على شعري.

أفترش الرصيف كل ليلة، وألتحف السماء كلما لسعني البرد، وأحتضن كلبي الصغير كلما قادتني الغريزة - بحثًا عن الدفء، تزورني *ملاك* في الأحلام فأعانقها لأنني بحاجة لعناق أم، وأسألها لماذا تأخرت فتعدني ألَّا تتأخر ثانية، وأجوب الطرقات بحثًا عن كسرات خبز فأصطدم قدرًا بها، أقفز من شدة الفرح، وأكلمها ألف كلمة في الدقيقة لكنها في النهاية لا تتذكرني فأعتذر منها مخذولًا وأمضي.

لكنها بعد دقائق تلحق بي تخبرني معتذرة بأن ذاكرتها رديئة وذهنها شارد فلم تتذكرني أول الأمر، أضحك مطولًا لأنها المرة الأولى التي يعتذر فيها أحدُ لي، تسألني عن أهلي فأخبرها بأنني لا أمتلك عائلة، وتطلب مني أن أعود إلى البيت بدلًا من التسكع في الطرقات فأخبرها أن لا بيت لي، تتحسس كفيها وجهي وتسألني ما اسمك، فأطلب منها أن تختار لي واحدًا.

يوسف*، هكذا أطلقت عليّ، سألتها لمَ هذا الاسم تحديدًا فأجابتني تأسيًا بنبي الله *يوسف*، عسى أن يفرج * الله عنك كما فرج عنه، فطلبت منها أن تحكي لي حكايته!

بكيتُ بكاء مريرًا عندما فقد يوسف أبيه، وعندما ألقاه إخوته في البئر، وعندما قالوا قد أكله الذئب، بكيت عندما سجن ظلمًا في أرض غير أرضه، وعندما نسيه أصدقاء سجنه فتخلوا عنه، وعندما طوى الله الأرض لأجله فأتى بإخوته إليه، سألت الله أن يرده إلى أبيه الباكي دائمًا، وأن يجمعه به بعد طول فرقة وشتات، وتخيلوا استجاب الله لي، كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن الله وأنبيائه، لم يحدثني عنهم أحد مسبقًا، لم أكُ أعرف ما هو القرآن الكريم رغم رؤيتي للمصحف مرارًا، ولم أفهم أبدًا معنى الصلاة رغم عشرات المساجد حولي، وجودها أحدث بركانًا داخلي، فطلبت منها ألَّا ترحل، وتخيلوا وعدتني *ملاك* بالعودة.

اليوم مضى عامان منذ رؤيتي الأولى لملاك، تغيرت فيهم تمامًا حتى لم أعد أعرفني، لم أفوت صلاة مذ - علمتني كيفيتها، ولم أتجاهل حفظ سورة قرأتها عليَّ لأحفظها، وأقرأ كل الكتب التي جلبتها لي لأن عقلي بحاجة للقراءة، ولم أعد أستجدي طعامي لأن الرجل الشريف لا يتسول طعام بطنه، وكنت فتى شريفًا على حد قولها لأنه من الظلم أن أحتمل خطيئة غيري.

اليوم أول يوم عمل لي في مكتبة عظيمة لبيع الكتب، لأول مرة تطلب مني ملاك الكذب، تخبرني ألَّا أخبر الرجل بقصتي أبدًا، وإن سألني فقد فقدتُ عائلتي منذ سنوات في حادث سير، أسألها ألستِ القائلة بأن المؤمن لا يكذب أبدًا، فتصمت على غير عادتها.

تختفي ملاك من حياتي لأشهر طويلة، أبحث عنها كبشري فقد آخر إنسان على وجه الأرض، أقرأ سورة يوسف مرارًا لأنها تذكرني بها، وأسأل الله الذي أعاد *يوسف* لأهله أن يعيدها إليَّ، أعانق كتاب الحروف لأنه أول كتاب علمتني فيه، وأفترش الأرصفة القديمة التي شهدت لقاءتنا الأولى، وأزور كل الحدائق العامة التي صحبتني إليها بعد كل اختبار نجحت فيه، يطاردني طيفها كل ليلة فأهرب إلى النوم فأجدها تنتظرني في الأحلام!

ثلاث سنوات، لم أكف عن البحث عنها أبدًا، أدعو لها كلما رفعت يدي للدعاء، وأحلم بها كلما زار جفني - النوم، وأسأل عنها كلما مررت برصيفنا القديم، أرتب غرفتي كل يوم عسى أن تفاجئني بالحضور ذات مساء، وأسعى جاهدًا للتعلم عسى أن أتعثر بها فأحدثها عما وصلتُ إليه، الشوق إليها يتفاقم داخلي، والحنين إلى رؤيتها يهوي على قلبي بمطرقة، فأقرر الانخراط في التعلم والعمل حتى أفقدها في زحمة مشاغلي.

أربعة سنوات، لم تحضر فيهن ملاك لكنها كانت حاضرة في قلبي بقوة، يعرفني الجميع الآن شابٌ ناجح - مثقف وخلوق أجاد تعلم الإنجليزية فاشتغل بالترجمة، وقرأ كل الكتب في المكتبة التي يعمل بها فأصبح صاحب فكرٍ ورؤية، كلما نظرتُ في المرآة لمحت طفلًا مقهورًا بملابس ممزقة وبطن خاوية وقلبٍ مكلوم، تطل من عينيه فتاة طيبة تقاسمه التعلم والحديث والطعام، ثم تختفي إلى الأبد.

تقرر الدولة تشجيعي كأفضل مترجم عربي، أحمل دعوة واحدة في جيبي أتخيل أنني منحتها لملاك، وأنني سأدخل الحفل فأجدها أول من تواجد فيه، ألقي على الحضور خطابًا تشجيعيًّا فتصدم عيني بفتاة باسمة تقف أقصى القاعة، أتلعثم في الكلام ثم ألعن -سرًا- الوهم الذي صورها لي!

في نفسِ الليلة أجوب كلَ الشوارع التي جمعتنا معًا، وكل الطرقات التي مشينا فيها سويًّا، وأنطق كل الحروف المتلعثمة بنفس الصورة التي نطقتها قديمًا بها، ثم أنادي في الظلماتِ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني

كنت من الظالمين، أجلس في نفس المكان الذي اتخذت منه بيتًا مسبقًا، فألمح صبيًا يفترش الرصيف، ويلتحف السماء، ويحتضن جروًا صغيرًا باحثًا عن الدفء، رجفة عظيمة تهز بدني وكأن كهرباء مسته، أتحسس الفتى جيدًا عسى أن يكون وهمًا أو سرابًا أو حتى خوفًا من أن يكون أنا لكنه يستيقظ فزعًا، أسأله مبهورًا ما الذي أتى به إلى هنا؟ فيجبني بأنه تشرد في الطرقات بعدما انهار العقار الذي يقطن به فرحل جميع أفراد أسرته إلَّا أخته ترقد مريضةً بالمشفى منذ سنين.

أطعمه جيدًا، ثم أعده بأنني سأتكفل به لأنني أعرفُ فتى آخرًا عاش قصة مشابهة لكنه في النهاية نجىٰ لأن أحدهم أخذ بيده، ولم يتركه للشارع يفترسه ويفتك به، يبكي الصغير لأنه تذكر أخته فأخبره أنها منذ الآن أختي أنا الآخر، يقفز ضاحكًا باكيًا، ثم يطلب مني أن نذهب سريعًا إلى المشفى ليقص على *ملاك* أخته كل ما حدث، ليخبرها أن رجلًا - كالملاك هو الآخر- تكفل بهما!

* * *

(١٦)

عزيزتي نداء...

كيف الحال، لا تجيبين أليس كذلك؟ إنني أعرفك جيدًا، وأعرف امتناعك التام عن الكلام عندما تكونين بحاجة إليه وصمتك المبهم عندما لا يُتوقع منك الصمت، لن أخوض حديثًا يروي لك تفاصيل ما حدث لأنكِ شهدتِ الحدث نفسه، ولن أشرح لكِ مدى خذلاني من الحياة لأنه نفس خذلانكِ منها، لم أكتب لك كي لا تلومين عليَّ، ولا أخشَ منك كتابة عتابًا مطولًا قوامه مدى خذلانكِ مني ومأساتكِ فيَّ.

لشد ما أنا حائر فيما أرجوه منكِ أأرجو منكِ أن تحبينني كما كنتِ أم أن تكفين عن حبك لي، أن تلتمسين لي العذر أم أنه من الأفضل تقنعي بخذلاني المتعمد لك، أن تكرهينني بكل قوتك أم تحبينني كما كنتِ دائمًا لأنني أحوج ما يكون إلى حبك الآن، إني أود أن أستمد منه شجاعةً تعينني على ما أنا مقدم عليه، وحنانًا ينسيني كل أزمة مررتُ بها، ورفقًا يريحني من عذاب الضمير الذي يلتهم كل ذرة بجسدي الآن.

اكرهيني أرجوكِ حتى لا يفجعك فراقي، واقتلي حبك لي لأنني لا أستحقه، وامنحيه لإنسانًا غيري عسى أن تساندك الظروف مرة.

وددتُ أن أحدثكِ عن خطبتنا الطويلة التي تجاوزت مدتها خمس سنوات، وعن أمي الكفيفة والتي أعولها وحدي، عن والدي المتوفى منذ سنين طوال، وعن إخوتي الصغار واحتياجاتهم التي لا تنقضي رغم سعيي الجاد لقضائها.

أردت أن أحدثك عن البطالة التي تنهش عمري، وعن التجاهل السيء لأصحاب الشهادات، والاستغلال المجحف للباحثين عن وظيفة، أود أن أكتب لك عن شقة الزوجية التي احترقت منذ ثلاثة أسابيع بكافة جهازنا قبيل زفافنا بيومين، وعن فقدان أمي لبصرها واحتراق وجهها في خلال رغبتها بإطفاء النار.

تمنيت أن أحدثك عن أحلامي المحترقة، وعن ملابسنا التي تحولت إلى رماد قبل أن نرتدي أيًّا منها، وعن الجدران التي انهارت إثر الحريق رغم أننا لم نستمتع بالمبيت داخلها ليلة واحدة، رغبت أن أحدثك عن شابٍ فقد نتيجة كفاحه وشقاء عمره وثمرة سعيه في لحظة واحدة، وعن والدته التي اقتحمت النيران لتطفئها لكنها رغمًا عنها اشتعلت بوجهها.

رغبت أن أحدثك كثيرًا، وأن أودعك وداعًا يليق بك لكنني في النهاية اكتفيت بالصمت لأنه أبلغ من كل حديث، وعزفت عن الكلام حتى لا أنكأ جرحي به، أكتب لك الآن من سطح الباخرة والتي ستقلني إلى بلد أخرى غير هذا البلد الذي خُذِلت فيه، وإلى هواء نقي غير هذا الهواء الملوث باحتراق أحلامي البريئة، وإلى وظيفة محترمة تليق بي خلاف هذا البلد الذي لا يحسن منح وانتقاء وظائفه، وإلى أموال غزيرة سأجمعها ليل نهار لأرد بصر أمي، وأعالج حروق وجهها.

كل ما أرجوه منك أن تذكريني بالخير، ولا أظنك إلَّا فاعلة لأنك رحيمة بريئة طيبة، رغم فعلتي الشائنة بحقك وانسحابي المؤسف من تجربتنا معًا، فإنني أعلم جيدًا بأنك ستغفرين لي، فالنيران التي التهمت كل

شيء احرقت قلبي معها، فتركته هشيمًا تذروه الرياح، فبتُّ أشفق عليك منه، وعزائي أنني تركتك بريئة طاهرة كما عرفتك أول مرة رغم بقائنا معًا خمس سنوات عُقد قراننا في الأشهر الثلاثة الأخيرة منها.

وثيقة انفصالنا أرسلتها مع خطابي لكِ إن شئت فانتظري رجوعي، وإن سئمت الانتظار فأمنياتي الحارة بالسعادة لك.

زوجك سابقًا.. *زين*. -

***

عزيزتي أمي..-

حبيباتي *يُمنى* و *رغد* و *وعد*، بناتي اللاتي لم أنجب واحدة منهن، وزهرات فؤادي اللاتي لم أتصور أبدًا الابتعاد عنهن لحظة واحدة، تعلمون ما حل مؤخرًا بنا فبدل حياتنا من حال بسيط هانئ إلى آخر مظلمٌ أسود، وتقدرون حجم الكارثة التي أسقطت على كتفي فتقفون إلى جانبي وتلتمسون العذر لي، كلما نظرت بوجه أمي المحترق رأيت عجزي وفقري فيه، وكلما حدثتني عن الظلام الدامس الذي باتت تغرق به احتل الظلام حياتي كلها، كذبت عليها بما يكفي حتى لم أعد قادرًا على الكذب، أُخبِرها مرارًا أن عينيها بخير، الضمادات فقط هي من تحول بينها وبين الرؤية فتصدقني دون جدال، أحدثها كاذبًا أن وجهها لم يحترق تمامًا فتقول *فداك*، أبيع أثاث بيتنا حتى أكمل مصاريف علاجها فتقول لا أريد علاجًا احفظ ثمنه حتى لا تبيتوا جائعين ذات ليلة، أسألها هل أنتِ بخير فتقول إذا كنتم كذلك!

الحياة إلى جانبها أصبحت مهمة مستحيلة، ونظراتي الدائمة لوجهها باتت تهوي على قلبي بمطرقة، وحديثها الحنون معي يشعرني بعقوقي معها لأنني لم أسحق ظروفي لأجلها، سامحوني من لي يسامحني غيركن، ومن يحبني مثلكن فيغفر لي حتى لو كنت مخطئًا بحقه، لم أختر قدري، ولم أشأ أبدًا الابتعاد عنكن لكنني أحبكن ومع ذلك اضطررت لتوديع ما أحب وملاقاة ما أكره، أرجو أن تبادلونني شعورًا بشعور فلا تسخطوا عليَّ أبدًا، وأن تقدروا ما أنا فيه فلا تتهمونني اتهامات تفتك قلبي، أكتب لكم الآن من أمام الباخرة، لحظات وأغادر الأرض التي جمعتنا معًا والسماء التي ركضنا تحتها سويًّا، ولا أدري إن كان في العمر متسعٌ لتجمعنا ذات الأرض وتظلنا نفس السماء، أم أن هذا هو جمعنا الأخير تحتها.

سامحوني، تركتن دون وداع لأنني أكره وداع من أحب، ورحلت عنكن من دون عناق لأنه سيهزمني شر هزيمة، إلى اللقاء إن شاء الله، عِدوني ألَّا تبكوا أبدًا، وأن تحافظن على بعضكن كما تحافظ الواحدة منكن على روحها، وأن تراعون أمكن لستة أشهر فحسب حتى أعود إليكن بما يصلح أن نعالجها به، قبّلن لي بعضكن البعض، ولتربت كل واحدة منكن على كتف الأخرى، ولتتبعن *يُمنى* في ما تمليه عليكن، المسؤولية في عنقها منذ الآن، سامحيني يا *يمنى* لأنني تركتك تحملينها وأنا على قيد الحياة!

حبيبتي *رغد*، أتذكرين الفستان الأزرق الذي طالما طلبته مني قبيل حفل زفافي لترتديه فيه، عز عليّ أن أرحل دون أن أقتنيه لك حتى لو انفضّ هذا الزفاف المزعوم.

أما *وعد* فقد اقتنيت لها كل الكتب التي دونت لي عناوينها مسبقًا بغية أن أقتنيها لها عندما يصلح الله الحال ورغم أن الحال لم ينصلح، كما أرجو إلَّا أنني لم يهن عليّ ألَّا ألبي لها ما رغبت به خشية ألَّا أعود إليها أبدًا.

أما أنتِ يا *يمنى*، يا من تتوقفين عن القراءة ثم تقبلين باكيةً الخطاب الآن رغم أنني لم أجلب لك شيئًا، ولم أترك لك ذكرى سوى هذا الخطاب وسترة سوداء كنتِ تشاركيني ارتداءها فيما مضى، فتستعر الحرب اللطيفة بيننا كلما بحثت عنها فوجدتك تتدثرين بها، سامحيني لأن الظروف كانت أسوأ من أن تمنحكِ الهاتف الذي حلمتِ به، أعدك أنه أول شيء سأبعثه لكِ من الغربة، فلا نمل أبدًا من الحديث فيه، ما زالت هناك حكايات لم أحكِها لك يا *يمنى*، ولا زال بقلبي جراح لا أقدر على كشفها لأحد سواكِ، وعبء ثقيل لن يسقطه عن كاهلي إلَّا الحديث إليك.

قبلي لي المنزل حجرة حجرة، لأن الوقت كان أضيق من إن يمنحني فرصة تقبيله، ورتبي خزانتي الفوضوية جيدًا لأنني منذ هذه اللحظة تركت كل ما بها من ملابس لك، لا تخبري أمي بأمر سفري فتزداد غمًا على غم، وأخيرًا هوني على *نداء* ما فعلته بها، أخبريها أن كل ما حدث كان أكبر من تحملي، فطعنت نفسي أولًا بنفس الخنجر الذي طعنتها به.

عزيزتي *نداء*، لا أدري لمَ أكتب لك الآن رغم تصميمي التام على أن تكون رسالتي السابقة هي - الأخيرة، ولا لماذا أحدثك في هذه اللحظة تحديدًا رغم استحالة إرسال ما أكتبه إليك، ولا ما الذي يدفعك دائمًا إلى خيالي فتفسح كل أفكاري المضطربة الطريق لأجلك.

لا أعرف ماذا يفترض أن أكتب لك، ولا بأي وجه أطلقك أمسًا ثم أعلن اليوم احتياجي التام إليك، انطلقت بنا السفينة منذ يومين، فشعرت بأن جسدي فقط هو من يغادر أما قلبي فقد تركته ملقى على الرصيف هناك، فلا هو مقيم معك فأرتاح ولا مغادرٌ معي فأهدأ، أذكر يوم أن بكيتِ لأن والدكِ لم يعد يحتمل خطبتنا المطولة فوعدتك أن أنهيها بأسرع وقت لكن الحياة كانت أصعب من أن تساعدني على الوفاء بوعدي، ويوم أن حملنا سويًّا وليدَ أخوكِ بعد ولادته بدقائق فسميتِه باسمي، وبعد وفاة والدك يوم أن بكيت لأجلك أول مرة رغم أنني رجل شحيح البكاء، وأشهدت الله أن أكون خير زوجٍ ووالدٍ لك.

يوم عقد قراننا وتجهيز شقتنا، يوم اقتناء ملابس الزفاف، ويوم كتابة بطاقات العرس، ويوم أن وزعناها سويًّا على من نحبهم، كيف لكل هذه الأحداث السعيدة أن تنتهي بهذه النهاية المؤسفة، وكيف لهذه العلاقة التي بدت وكأنها ستستمر للأبد أن تنتهي على حين غرة، وكيف لحفل الزفاف السعيد أن يتحول لحريق هائل يلتهم روحي وقلبي وعين أمي، إنني أبكي الآن لأنني لم أُمنح رفاهية البكاء قبل هذه اللحظة، وأكاد أصرخ كل صرخة كتمتها بعد الحادث لولا بقاء من عزيمة وجلد.

عزيزتي نداء، البحر هائج من حولي، والهواء يدفع سفينتنا في كل اتجاه وعكسه، ورذاذ الماء يغرق ملابسي فأكاد أتجمد من البرد، الوجوه الشاحبة حولي تبث في نفسي الخوف واليأس، والأنفاس اللاهثة إلى جانبي تشعرني بأن بيننا وبين الموت خطوات، لن أثقل عليك بطلب العفو منك لكن عديني إن بلغني الموت ألَّا أموت إلا وأنت راضية عني.

حبيبتي *يُمنى*، صغيرتي التي لعبت في حياتي دور أم، وصديقتي التي لم تخذلني أبدًا رغم خذلاني - الأخير لها، ورفيقة عمري منذ أن تواجدنا معًا في رحم أمي، فلم نفترق أبدًا سوى منذ يومين، ضلعي الأيمن وكتفي الثابت المقيمة بقلبي دائمًا والمستقرة بروحي حتى لقائنا عند الله.

لم أشأ أبدًا أن أكتب لك ما أكتبه الآن، ولم أتوقع مسبقًا بأن نهايتي قريبة إلى هذا الحد، قاسية عليكِ إلى هذا المدى، يقولون إن موتنا مسألة وقت فحسب، فأبكي بكاء العاجز الذي فعل كل ما بوسعه لكنه لم يصل في

النهاية إلى نتيجة، بكاء من قرر أن يهزم ظروفه فهزمته هي شر هزيمة، بكاء الخائف من الموت لكنه سيموت غرقًا بعد لحظات!

أنظر إلى البحر الهائج حولي فأرى نهايتي فيه، وأسأل الربان متشبثًا بآخر أمل فلا يجيب عليّ، وأحدث أقراني عن الأمل فيحدثونني عن نهاية كل مهاجر غير شرعي، أرفع بصري إلى السماء فأرى وجوهكن فيها تعاتبني على الرحيل..!

يحتضن أقراني بعضهم فأقرر أن أحتضن نفسي وطيفكن الذي يدور حولي، ويحكي كل واحدٌ منهم خذلانه من الحياة فأقرر ألَّا أحكي شيئًا، يدخل الماء إلى السفينة فيركض جميعنا إلى سطحها، الجميع يجهش باكيًا الآن أمّا أنا فأسأل الله أن يتقبلني شهيدًا عنده، أطلب منه ألَّا يُذهب حياتي سدى، وألَّا أموت بثمن بخس، أخبره أنني ما غامرت بروحي إلَّا برًا بالكفيفة التي خلفتها ورائي، وأنني بكل حزني ويأسي وشقائي من العالم كنت وما زلتُ أحسن الظن به.

أذكر رداء رغد الأزرق فأحمد الله أنني لبيت طلبها الأخير، وتراودني كتب وعد فأرجو أن تكون علمًا أنتفعُ به في قبري إذا حدث وامتلكت واحدًا، وأتذكر يمنى فلا أعثر على شيء قدمته لها سوى حبًّا هائلًا لم أمنح لأحد حبًّا مثله، سامحوني جميعًا، الله قدر موتي والله كفيل بكم، إن التهمني البحر فهذا قدري، وإن تعثرتم بما بقي مني فأوصيكم أن تعانقوه طويلًا لأنه يرغب جادًّا بعناقكم.

أطلب من الإله الرحيم الذي حرمني تحقيق كل حلم حلمت به ألَّا يحرمني قبرًا يزوره الأحباب من آن لآخر، وإن كانت لي أمنية وحيدة فأتمنى أن يعوضكم الله عن أخيكم خيرًا، وأن يمد في أعماركم بقدر ما قصر في عمره، وأن يسدل سعادته عليكم بقدر ما كان في حياته من تعاسة.

أما أمي فلا تخبروها بنهايتي المفجعة فإني أكره أن أوجعها، وأما نداء فلا تطلبوا منها مسامحتي لأنها قد فعلت، فوجهها يرتسم باسمًا أمام وجهي الآن.

حبيباتي يُمنى ورغد ووعد، لا تنسوني أبدًا لأنني أخشى أن يندثر ذكري في هذا العالم، فلا يدعو لي أحد، أو أن يكرهني الناس فلا يذكرون لي إلَّا ما فعلته بنداء، فيدعون عليّ صباح مساء، إنني خائف، وحزين، وأسأل الله أن يرفع ذكري في العالمين فيترحم عليّ من عرفت ومن لم أعرف.

أخوكم الغريق بعد دقائق من الآن.. *زين العابدين سعيد*. -

* * *

(١٧)

إلى من ابتلع الكلمة المؤذية قبل أن ينطقها، ولمن انتهكه حديث الآخرين، لكن قلبه عازفٌ عن انتهاك قلوب العباد، إلى من يهتم لأثر الكلمة فيضع الناس موضع نفسه، إلى من يمشون على الأرض هونًا، ولا ينطقون إلَّا خيرًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا، إلى من يتعاملون دائمًا بحسن الظن، ويفترضون غالبًا خير النوايا فلا يشقى بصحبتهم أحدٌ أبدًا.

إليهم فقط، ليتني كنتُ واحدةً منكم ذات يوم...

علاء أحمد عبد العزيز*؛... *

مُعلم القرآن الذي تم تعيينه بمدرستنا مؤخرًا، لا، ليس الأمر كما تبادر إلى ذهنك، فـ* علاء* إذا رأيته لظننتَ أنه أبعد ما يكون عن القرآن، شاب في الخامسة والعشرين من عمره، عصبي جدًّا، وصوته مُفزعٌ وعالٍ للغاية، وألفاظه بشعة لا تناسب معلمًا من الأساس فضلًا عن كونه معلمًا لكتاب الله، صاحب هالاتٍ سوداء تحت عينيه أظن أنها ظهرت ترتيبًا على إدمانه رغم أنني لم أره يدخن قط، لكن هالاته تشي به!

متحفزٌ للعداء دائمًا، لا يخوض معنا أي نقاشٍ أو جدال، وعندما نطلب رأيه ينظرُ إلينا باستهزاءٍ ولا يرد، مؤخرًا علمتُ أن *علاء* لم يكمل دراسته، ولم أفهم كيف تم تعيينه مدرسًا رغم أن مؤهلاته لا تناسب ذلك! بالتأكيد قدم رِشوة لأحدهم، فهذا مناسب لخُلقِه، نصحته مرة أن ينتبه لملابسه القديمة والباهتة والتي لا تناسب معلمًا أبدًا فلم يرد، متكبرٌ وأحمقٌ وبخيل!

ذات يوم قررت المدرسة جمع أموال منَّا ومنحها للفقراء من الطلاب، كل معلمي المدرسة شارك في هذا العمل الإنساني إلَّا هو، فحدثته عن فضل الصدقة..!

ذات يوم لمحته نائمًا في أثناء دوامه الدراسي، فرفعت أمره للمدير قائلة بالتأكيد يتعاطى ليلًا، لو كان رجلًا محترمًا على قدر المسؤولية لاحترم مواعيد عمله، لا أدري كيف تم تعيينه هنا بلا مؤهل ولا حتى أخلاق جيدة تناسب وظيفته، فأخبرني المدير أنه جاء إلى هنا بناء على توصية عُليا..!

لا يحترم مواعيده أبدًا، يأتي متأخرًا ويرحل باكرًا، ولم يعد أحد في المدرسة يطمئن إلى وجوده فيها، حتى لمحه أحدهم وهو يتسلق أسوار المدرسة ليلًا، فاتُهِمَ بالسرقة، وأخيرًا تم فصله من العمل نهائيًّا، يومها قلتُ له *أنتَ تستحق*.. فابتسم!

بعد هذه الحادثة بشهرين، وبينما أقود سيارتي لمحتُ شابًا واقفًا بين أكوام القمامة ممسكًا بحقيبة بلاستيكية يملأها ببقايا خُبز، إنه يشبه علاء من بعيد، وعندما اقتربتُ منه وجدته يحاول ارتداء قميصًا ممزقًا التقطه من القمامة.

حاولت التقدم إليه لأتبينَ ملامحه لكن السيارات المحتشدة بالشارع حالت بيني وبين ذلك، بالتأكيد ليس هو، علاء متكبرٌ سفيهٌ وأحمق، ومستبعد أن يدفعه أمر ما لتناول الطعام من القمامة، بالتأكيد مجرد تشابه في البنية ليس إلَّا.

ذات يوم وأنا جالسة بمبنى *كن إنسانًا* لتقديم أعمال الخير وتوزيع الصدقات على من يستحقها، وبينما أنا أنهي أعمالًا إدارية، إذا بشاب طويل عريض المنكبين تحوم هالات سوداء تحت عينيه، يرتدي ملابس قديمة وباهتة يقف هناك عند الباب مترددًا في الدخول، ابتلعت ريقي في صعوبة إنه *علاء*، لماذا جاء إلى هنا بهذا المنظر المذري؟ لا بدَّ أنه جاء متوسلًا للصدقة، لعنة الله على الجشع، هذا الإنسان لا يكف عن أخذ ما ليس له بغير حق.

هاتفتُ رجال الأمن، وطلبت منهم أن يطردوه، هذا الإنسان جشع ومدمن وغير سوي أبدًا، يجب تنظيف المجتمع منه ومن أمثاله، بالفعل تم طرده بعيدًا، ولم يعد ثانية.

بعد هذا اليوم بستة أشهر، وبينما أنا وفريق العمل نحاول جمع أسماء مَن يستحقونَ العون وتقديم الصدقة، إذا بي أمسك بملف مكتوب على غلافه *علاء أحمد عبد العزيز*، دقَ قلبي في عنف، ولم أجرؤ على تفحص الصورة المرفقة خشية أن يكون هو علاء نفسه.

بعد لحظاتٍ قصيرة من الشك والتردد تأكدت أن علاء هو فعلًا صاحب الملف! والذي كُتِبَ فيه..

علاء عبد العزيز؛ شابٌ في منتصف العشرينيات، تعرض هو وأسرته لحادثٍ مؤلم منذ ثلاثة سنوات، * فتوفى أخيه التوأم الوحيد، وتم بتر ساقي والده، وفقدت والدته الذاكرة، وإحدى ذراعيها..!

تم فصل علاء من جامعة الأزهر نتيجة لتغيبه الطويل والذي ترتب على ذهابه للمشافي كل يوم بخصوص أمه وأبيه، تم توظيفه معلمًا للقرآن بإحدى المدارس بناء على توصية أهل الخير لكنه فُصِل منها لاتهامه بالسرقة، وبعد التحقيق تبين أنه كان ينام بأروقة المدرسة بعد أن عرض منزله للبيع ليستكمل علاج والدته ووالده، لم يستمر في عمل أبدًا نتيجة لانشغاله بعلاج أهله، فشُوهِدَ أكثر من مرة وهو يأكل من القمامة، وأخيرًا يعاني علاء من ارتفاع حاد بالضغط وإصابة حديثة بالسكري*.

بكيتُ بكاء مريرًا، لأول مرة أفهم سبب هالاته السوداء وملابسه القديمة، واقتحامه للمدرسة ليلًا، توتره - وعصبيته وامتناعه عن منح المال للمحتاجين، كانت لأنه من المحتاجين أنفسهم، لقطات فلاش باك أعادتني للفتى الطيب الذي يقف بباب جمعية خيرية لكنه يُطردُ منها، وبفتى مقهور يجمع الخبز من القمامة، وبشاب في بداية عمره يبيع بيته بعد أن يرقد أهله بالمشفى، ثم ينام هو بالعراء، ويأتي إلى المدرسة كل صباح وكأنه آتيًا من بيته، وابتسامة حزينة على وجهه يوم أن قالت له فتاةٌ مغرورة طائشة بعد فَصِلهِ واتهامه بالسرقة بأنه يستحق.

يا الله، هذه أنا، فتاة غنية تعمل في الخير، لكنها أبعد ما يكون عن الخير، وهذا فتى يظنه الجميع شريرًا فاسدًا وهو أصلح من هؤلاء الجميع، لن أخبركم بنهاية القصة، اكتبوها أنتم، تُرى هل تزوجني *علاء* بعد أن أسرني صبره وكفاحه وكتمانه وصلابته، تُرى هل اعتذر له المجتمع القاسي وقدم وظيفة مناسبة وعلاجًا مجانيًا لأمه وأبيه..؟!

أم أن علاء مات كمدًا وحسرة في نفس اللحظة التي وصلنا فيها للاعتذار إليه وتقديم المساعدة بسبب كل ما تعرض له من قهر وظلم في مقتبل عمره وريعان شبابه..؟! اكتبوا النهاية أنتم، لكن بالله كونوا رحماءَ وطيبين، يكفي الفتى ما هو فيه.

لا، لا، كونوا منصفين عادلين لا تجاملوا المجتمع الظالم القاسي، أوجِعوه حتى لا تتكرر مأساة علاء مع مليون *علاء* غيره، هذا المجتمع الذي يُجرِمُ الانتحار لكنه يدفع الناس إلى قتل أنفسهم دفعًا، ويدعي أن الفقراء هم عيالُ الله، لكنه يطحنهم ويدوس عليهم، ويُعلن أن العدل والرحمة هم أساس المجتمع، لكن في الحقيقة لا أساس له.

* * *

(١٨)

إلى من يكره حياته ويمقت واقعه، لمن قهرته تجاربه وطحنته ظروفه فقرر أن يضع حدًا لها بنفسه، لمن فقد في نفسه العزم فلم يعد قادرًا على البدء من جديد، وخارت قوته فعجز عن التأقلم مع ظروفه السيئة، إلى من نَفِذَ صبره، وفترت همته، وتعاظم يأسه، وتفاقم بداخله كل شعور سيء، فتملك الشيطان منه، إلى من يفكر جادًا بإنهاء حياته، ويسعى جاهدًا نحو التخلص منها..

الإنسان بناء الله ويلٌ لمن هدمه*..*

قالها لي *غسان* بعد تعافيَّ من تجربة انتحار، هل تعلمون من هو *غسان*؟! ابن العم محمود مؤذن مسجد مدينتنا، فتى الحي اللامع، وشاب المدينة المهذب والخلوق الذي لم يستطع أي من شباب الحي التفوق عليه، فأمامه عامٌ واحد ليتخرج من كلية الطب،

أما عن ملامحه فكل من رآه يتعجب إذا كان هذا جمال غسان، فماذا عن جمال* يُوسف* عليه السلام..!

هذه كانت معلوماتي السطحية عن غسان، لكن في الحقيقة أنا لم أتحدث معه مطلقًا، ولم أره من قبل، فأنا عمياء*، مذ أن كنت في الخامسة من عمري، تشوشت رؤيتي ثم انعدمت تمامًا في سن الثالثة عشر، * فخذلني الرفاق وخانتني الصحبة.

كنت أرغب بالحديث فلا أجد مستمع، وأرغب بالكلام فلا أجد منصتًا، صديقاتي تخرجن، ومنهن من تزوجت وأنجبت أطفالًا، وأنا كما أنا لا زلت أقف عند سنواتي الثلاثة عشر، الحياة تسير من حولي، وأنا أسير حول نفسي حتى فقدتُ الأمل، وغلبني اليأس، واستوطنني الأسى، فقررتُ أن أنهي حياتي بيدي.

وفي يوم جمعة أحضرتُ أقراصًا منومة خططت أن أبتلعها كلها قبيل أن أنام فلا أصحو أبدًا، وقبيل خِطبة الإمام رحتُ أتحدث إلى أبي وأمي حديث وداع حتى أُذنُ لها، ولكم أن تتخيلوا ما هو عنوان خطبة الجمعة إنّا وجدناه صابرًا نِعم العبد إنه أواب*، هذا الخطيب ليس بإمام مسجد مدينتنا.*

هذا الإمام المفوه لأولِ مرة يعتلي المنبر ليته اعتلاه منذ زمن، هيجت كلماته عن الصبر مشاعري، فظللت أبكي لدقائق طوال، وأخذت أمي تهدئني حتى عاد أبي، وأخبرنا أن *غسان* هو من خطب الجمعة، وأدى الصلاة لوعكة صحية ألمت بالإمام.

ومنذ هذه اللحظة شعرت أن غسان هو الشخص الوحيد في العالم الذي أود الحديث إليه، وأصبح هو محورُ حديثي بمناسبة ومن دون مناسبة حتى نبهتني أمي بأني يجب أن أكف عن الحديث عنه، فهو لا يعلم بوجودي في هذا العالم من الأساس، كانت كلماتها كرصاصة استقرت في قلبي فمزقته، لكن قولها صحيح على كل حال.

وعدتُ إلى تفكيري السابق، لا بدَّ أن أنهي معاناتي بنفسي، وأضع حدًا لهذا الشقاء، وابتلعت الأقراص المنومة دفعة واحدة..!

لم أشعر بما حدث بعدها حتى استفقتُ على صوت عذب يتلو آيات من القرآن، انتظرت حتى يُنهي هذا الصوت الجميل تلاوته، ثم تساءلت أين أنا؟ فجاءني الجواب كأبعد ما يكون عن عقلي.

إنني بالمشفى وإلى جانبي غسان، أووه.. كيف تاه عن بالي صوته؟!

بعد أيام عدتُ إلى المنزل بعد أن تكفل غسان أمام إدارة المشفى بتمريضي حتى أسترد صحتي، ظل إلى جانبي طوال أيام مرضي الأولى، لم يحدثني مطلقًا بصورة مباشرة، لكنه مرة كان يتلو القرآن إلى جانبي، ومرة يقرأ من رواية بصوتٍ عال ومرة يستذكر دروسه.

وذات مرة، وبينما هو يقرأ من إحدى رواياته بصوتٍ عال خفض صوته فجأة فطلبت منه أن يقرأ كما كان.

وكانت هذه هي البداية، ظل غسان لأيام طويلة يقرأ لي كتابًا أو رواية، ثم بدأ بتحفيظي القرآن، وأخيرًا شرع في تعليمي القراءة بطريقة *برايل* للمكفوفين.

كان غسان بمثابة النافذة التي أطل منها على العالم، فتحسنت صحتي، وزاد وزني، وتورد وجهي، لطالما توجست من أن تنغلق في وجهي هذه النافذة، وكان توقعي في محله، فذات يوم جاءنا *غسان* مُحضرًا معه مجموعة من الكتب ومصحف، أعلن رحيله عنَّا لظروف دراسته، وطلب مني أن أصبر حتى ينظر الله في أمري.

وقتها بكيت بكاء مريرًا، وطلبت منه ألَّا يتخلى عني، ورحتُ ألمح له أنه ليس عاديًّا بالنسبة إليّ، لكنه كان حاسمًا بأمر رحيله، فقط قال لي إنني لن أغيب عن مخيلته قط، وسيظل موضعي في نفسه كما هو حتى آخر العمر.

ورحل غسان سريعًا كما حضر سريعًا، وانزويت على نفسي من جديد، كلما افتقدت الحديث إليه قرأت في كتبه، وكلما شعرت بالحاجة لطمأنة قلبي دعوت له، لكن كل هذا لم يسد حاجاتي إليه، إنه الشخص الوحيد الذي اطمأننت إلى جواره، فلماذا يرضى بالخوف لي؟ والشخص الوحيد الذي رغبت بوجوده جانبي، فلماذا يزهد هو في وجودي جانبه؟!

تخرج *غسان* وغادر هو وأسرته الحي، انتظرت أن يأتي ليودعنا وداعًا أخيرًا لكنه خيب ظني فيه، وخلت المدينة من غسان وأهله لكن قلبي لم يخلو منه، وذات يوم أُذِن لصلاة المغرب، ودق قلبي في عنف عند سماعه لصوت الإمام، فأنا أعرف هذا الصوت جيدًا، إنه أحبُ الأصوات إليّ، ورحت أرهف السمع، الليلة سيزورنا غسان بالتأكيد، الليلة سأتحدث إليه مجددًا، وظللت أنتظر قدومه بين لحظة وأخرى حتى انتصف الليل، وعدتُ إلى فراشي في خذلان وخيبة.

في اليوم التالي استيقظت على صوت أمي وهي تخبرني أن أم *غسان* بالخارج، ظننت أنني أحلم في البداية حتى تيقنت من الأمر، لم أفهم لماذا جاءت، ولا ما الذي جاء بها إلينا في هذه الساعة المبكرة، لكن راودني إحساس مبهم بأنها بالتأكيد جاءت لخطبتي، ولم يكن ظني كالعادة في محله بعد أن فهمتُ بأنها جاءت فقط لتطمئن علينا، وفي معرض كلامها علمتُ منها أن غسان التحق بمنحة للدراسة خارج مصر ولن يعود قبل خمس سنوات.

في نفس الليلة بكيتُ بكاء حارًا، ورحتُ أتحسس مقتنيات غسان التي أهداها لي ليلة رحيلة، وتحسست يدي ورقة مطوية لم أنجح في تمييزها، ولم أعرف هل هي مجرد ورقة فارغة.. أم كتب بها *غسان* شيئًا ما ومنعني الحياء من سؤال أمي عن ماهية الورقة.

بعد هذه الليلة بعامين تبرع لي أحدهم بمبلغ مالي ضخم بغية إجراء جراحة لعيني في الخارج، خشيت التعلق بهذا الأمل فرفضت في البداية، لكن مع إصرار والدي رضخت للأمر، وأجريت الجراحة، وكُتب لها النجاح وكانت ورقة غسان هي أول شيء أتفحصه، فوجدته قد كتب فيها *ستظلين في قلبي حتى آخر العمر*..!

فابتسمت في خيبة أمل، أين هو الآن؟ بالتأكيد أنهى دراسته، وتزوج، وأصبح طبيبًا مشهورًا، وربما له من الأطفال اثنين أو ثلاثة، ولم تمضِ ثوان حتى طُرق باب غرفتي، ورفعت بصري لأرى من الطارق، فإذا به شاب حلو القسمات، أرستقراطي المنظر، يتساءل بصوت عذب وهو ينظر إلى الورقة بين يدي:

حتى آخر العمر؟! -

أووووه... إنه *غسان* نفسه، أيعقل أن تكون هذه نهاية قصتي؟ لا،لا، بل بدايتها، أيعقل أن يعود إليّ بصري وأن يتقدم غسان لخطبتي في يوم واحد؟ ورحتُ أصرخ بهستيريا مفرطة لا أكاد أصدق ما أنا فيه.

اليوم سأزفُ إلى غسان، لا أكاد أصدق أن الفتاة العمياء النحيلة التي لم تكمل تعليمها، قد رد الله لها بصرها وسيزوجها بمن تحب، أووووه.. أيعقل أنني حاولت الانتحار يومًا ما هروبًا من واقع أسود، الحمد لله على عماي وعلى يأسي وحزني واكتئابي، كل هذا جذبني من عنقي ليضعني في طريق فتى صالح كغسان، لم يدخر مجهودًا في إسعادي، ولم يتوان لحظة عن مد يد العون لي.

ربما جميعنا يمر بظروف سوداء مشابهة وبعقدة يحسب أنها لن تنحل أبدًا، لكن على قدر الابتلاء يكون العوض، وعلى قدر الصبر يكون الأجر، وعلى قدر عماي رزقني الله بغسان.

* * *

(١٩)

قدرُ الله نافذ فلا تجزعي.. وهدئي من روعكِ، إن الله رحمة وسلام**

إلى *محمود*..

من أحسن الظن بي فأسأت التفكير فيه ذات يوم، من مد لي يد الرحمة ومع ذلك بخلت برحمتي عليه، إلى من أحسن إلي فأسرفت في الإساءة دون قصد، إليه...

لا تكونوا مثلي، والتمسوا لأحبتكم عذرًا واحدًا من سبعين عذر..!

- لو كانت آخر أنثى في العالم لن أزوجها لك، ظننتك أعقل من أن تتقدم لخطبة *سُهى* الفتاة الوحيدة التي لم تكمل دراستها في الحي، رجل قانون مثلك، الأول على جامعته بالتأكيد بعد عام واحد سيكون أحد رجال النيابة العامة أو رجل قضاء له مركزه.

بماذا ستجيب إن سألك أحد عن مؤهل زوجتك؟ كيف ستخبره أنها لم تكمل تعليمها حتى وبأي وجه ستقدمها للمجتمع الراقي الذي ينتظرك؟! اختر ما شئت من النساء وسأزوجها لك على الفور أما *سُهى* فلا.

كان هذا هو الحوار الدائم والمتكرر بينه وأبيه، ولم يستحِ *خالد* أبدًا من إخباري إياه كلما زارني، ربما ليؤكد لي أنه لن يمل عن محاولة إقناع والده بالزواج مني، وربما لأن *خالد* مؤمن بأنني دُفعت لترك الدراسة رغمًا عني، وأنني لو أكملت مسيرتي التعلمية كما يجب لكان والد خالد نفسه يتهافت على خطبتي لابنه الآن.

تُوفيت أمي في أثناء ولادتي، وبعد سنوات قليلة لحق بها أبي، وفجأة وجدت نفسي قد انتقلت للعيش بشكل دائم في بيت عمي والذي لم يدخر جهدًا في أكل مال اليتيم وحرمانه من حقه حرمانًا فوق حرمانه، كنت أُعاملُ في بيته كخادمة، لا أنام مع أبنائه، ولا أتناول طعامي معهم إلَّا نادرًا وحتى دراستي قطعني عنها بإيعاز من زوجته، وهكذا انقطعت صلتي بالحياة رويدًا رويدًا، حتى ذلك اليوم.

يومَ أن ذهبتُ خلسة لمكتبة الحي لأستعير كتابًا أدفن أحزاني فيه، فأخبرتني أمينة المكتبة أن النسخة الوحيدة المتوفرة منه يقرأ منها هذا الشاب الجالس هناك، فذهبت إليه متسائلة متى سينهيه لأنني أرغب ف استعارته، فتساءل مندهشًا هل أدرس الحقوق؟! فأجبته بالنفي، فتمتم ضاحكًا بأن الفتيات نادرًا ما يقرأن في القانون، واستحييت إخباره بأنني أحاول أن أعرف كيف أُعيد حقي المسلوب من عمي!

بعد يومين عدتُ للمكتبة بالتأكيد انتهى هذا الشاب من قراءته فيه، وللمفاجأة السارة وجدت أن أحدهم قد اقتنى الكتاب، وتركه هدية لي متى ما ذهبت أخذته، عندما تصفحت الكتاب وجدت به ورقة كُتبَ فيها عندما أتخرج بعد ثلاثة أشهر ستكون قضيتك هي أول قضية أشرعُ بها.

كانت هذه هي بداية قصتي مع *خالد*، الوحيد الذي أطمئنُ له، ويهدأ قلبي بالتفكير فيه، كان ينتظر تخرجه بفارغ الصبر، وأخبرني كثيرًا أن بتخرجه ستؤول إليه قضيتان، واحدة تخص عمي الجشع، والثانية تخص زواجنا، حتى صار يدللني بـ *قضيتي!*

في نهاية المطاف بعد إلحاح خالد المتواصل بالزواج مني وإعراضه عن بيته، وتغيبه عنه لأيام وافق والده على مضضٍ بالزواج، ويا لتيه ما فعل!

عشتُ في بيت أهله أيضًا منبوذة كخادمة أو أقل، بل أقل، لم يرحم والده يُتمي، ولم يمنحني الفرصة أبدًا لأجعله يحبني، كنتُ أتحمل غضبه غير المبرر، وقسوته وعنجهيته واختلاقه للمشاكل من أجل *خالد*، كل عناء يهون لأجله، وكل مشقة تهون في سبيل حياتنا معًا، حتى انتهت هذه الحياة فجأة دون وداع أو حتى سابق إنذار!

حادث قطار تكفل بإنهاء حياة *خالد* بعد زواجنا بستة أشهر فقط..!

حادث جلل ومصيبة مروعة فقدت على إثرها النطق لأيام طويلة، وقبل أن يمر على وفاة خالد أسبوعين أخرجني والده من المنزل، طردني شر طردة، فجثوت على ركبتي متوسلة رحمته لكنه لم يرحم..!

ولم يكن لي مأوى سوى العودة إلى بيت عمي والذي أخرجني من بيته هو الآخر بعد أيام معدودة من إقامتي فيه بمجرد علمه أنني أحملُ في أحشائي طفلًا، فلم يكن مستعدًا لكفالته كما كفلني على حد قوله!

ووجدت نفسي مضطرة لإخبار أهل خالد بالإمر، عسى أن ترق أفئدتهم لحفيدهم الذي رحل أبوه قبل حتى أن يعلم بوجوده، فتحول الأمر إلى فضيحة، وخرجت للمرة الثانية من بيتهم مكسورة الجناح ومهدرة الكرامة!

تكفل والد *خالد* بقطع سبل العيش عني، وطردي من كل عمل التحقت به، ونشر الشائعات عني في كل مكان ومجلس، ولم يردعه دين أو خلق عن الطعن في شرفي ونسب حفيده، حتى تركت المدينة تمامًا، واستقررت في مكان أظن ألَّا أحد يعرفني فيه.

وذات ليلة، بعدما وضعت طفلي بأيام قليلة، لن أخبركم مدى فتكها بي أو قسوتها عليّ، لن أحدثكم عن أيام نفاسي الأولى التي قضيتها وحدي، ولا عن حمى أصابتني فلم يزورني زائر أو وإغماء تعرضت له مرات فلم يشعر بي أحد، ولا عن صغير تصارع أمه الموت إلى جانبه دون أن تعلم لمن تتركه، فقررت ذات مرة إيداعه دار أيتام أو ملجأ بمجرد قدرتها على مغادرة الفراش لأنها تحت وطأة هذا المرض مفارقة الحياة لا محالة، تخيلوا مدى قسوة الأيام عليّ واستهزائها بضعفي وفقري وقلة حيلتي.

حتى مَرِض الصغير ذات ليلة، وألهبت الحمى جسده كما أكلت جسد أمه من قبل، فلم ينقطع بكائه لساعاتٍ طوال، وبرغم حالتي السيئة ونيران تشتعل بكل ذرة فيّ وأقدام تعجز عن حملي وحدي وجدتني أحمله ذاهبة به إلى المشفى رغم أن الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل، كنت أهرول باكية، وأتحرك صارخة وكأنني دفنتُ عزيزًا للتو، وأرفع بصري من آن لآخر إلى السماء أستلهمها الرحمة، ويبدو أن الله سمع نداء أم ينزف قلبها دمًا منذ وطأة قدمها هذه الدنيا، فاستفقت من بكائي على يد طيبة تهزني برفق بممر المشفى، وسؤال جَزِعٌ من رجل يخبرني أنه طبيب جاء ليقدم لي المساعدة بمجرد رؤيته لي، ولم أكد أنظر في وجهه من وراء دموعي حتى وجدته آخر شخص أتوقع أن أراه، إنه *محمود* أخو زوجي..!

شاب صالح ك *خالد* يشبهه في كل شيء، ويتبعه في كل إحسان وهدى، لكنه أيضًا لا طاقة له بالوقوف ضد رغبات أبيه.

بمجرد ما نظر إليّ ارتسمت علامات الصدمة على وجهه، ثم بكى حتى انتهى تمامًا من تمريضنا، منذ هذه اللحظة لم يتخلف *محمود* عن توفير سكنٍ آمن لي، والسؤال عنّا في كل وقت وحين، كان نعم الرجل وأمثلُ فتى، إذا تعرفتَ عليه أنكرت أن هذا الشاب من نسل أبيه..!

لم ينسني وجوده غياب *خالد* لكنني رويدًا رويدًا بدأت أشعر بالأمان الذي فقدته بموته، وبمرور أربعة أعوام لم ينقطع فيها عن زيارتنا وتلبية احتياجاتنا صغيرة أو كبيرة، تعلق طفلي به حد البكاء والصراخ عند رحيله، فما كان منه إلَّا أن يصحبه -غالبًا- معه للخارج، سواء للعيادة أو المشفى أو أي مكان آخر، كنت أحمد الله على وجود *محمود*، وأردد في داخلي إنّ الله أدركتني رحمته عن طريق وجوده إلى جانبي رغم أنه يكتم أمري عن أهله.

في النهاية عرض عليَّ *محمود* الزواج، وصمم أن يمنحني مدة معقولة لأفكر بالأمر ريثما يرتب الأمور مع أهله رغم أنه قد حسم قرار زواجه، ولن يثنيه أحدٌ عن رغبته.

وظللت أنتظر عودته، وأتوقع مجيئه عند كل طرقة على الباب أو صوت خطوات أمام المصعد لكنه تغيّب أكثرُ من اللازم، وانقطع حضوره أكثر من المعتاد، وكلما هاتفته وجدت هاتفه مغلقًا أو خارج نطاق الخدمة، فآذاني تغيبه جدًّا، وشعرت أنه ربما ابتعد عني لأنه تراجع عن أمر الزواج بي، فقررت أن أتركه وشأنه حتى يَدفعه الحنين للطفل فيأتِ إلينا ك عَمٍ له فقط.

بعد أيام بسيطة وبينما أتصفح هاتفي، أرى الكلمات ولا أعي منها شيئًا، لفتت انتباهي صورة لـ *محمود* وقد كُتب فوقها نعيًا مريرًا لطبيبٍ توفى في ريعان شبابه، وباءٌ عالمي تكفل بإنهاء حياته كما أنهى حياة الكثيرين..!

رحتُ أصرخ كالمجنونة حتى فقدت وعيي، ثم استفقت على شقتي ممتلئة بالجيران الذين تجمعوا وحطموا الباب على أثر الصراخ، حملتُ طفلي وذهبت به إلى المقابر، لم يرهبني سواد الليل فحياتي أسود منه، بكيت *محمود* و *خالد* معًا، وقفت على قبرهما طويلًا وأنا أبكي كل ذكرى جمعتني بهما، ما نهاية هذه الحياة * الصعبة يا رب؟!.. فقدٌ يتلوه فقد، وأذىً يتبعه آخر، أهذه نتيجة صبري، أهكذا تكون النهاية؟ ليت النهاية تأتي عاجلًا يا رب، فتجمعني بهما، لم يرفق بي سواهما، ولم يحنو عليّ أحد غيرهما، فانتزعهما القدر مني شر نزعة، أنتظره لأكثر من أسابيع ثم في النهاية أجده توفي منذ شهر ونصف، أسيء الظن به، وأعاتبه كثيرًا بيني وبين نفسي ثم أكتشف قدرًا أن الشاب الصالح راقد في قبره، وألعن الظروف التي جمعتني به لأنه في النهاية تخلى عني ثم أعرف أخيرًا أنه كان يصارع المرض حتى مات وهو يرغب برؤية طفلي، ومع ذلك لم يره.

طوال حياتي كنت أدعو الله أن ينتقم من والد زوجي، وأن يقهره مثلما قهرني، فارتدت الدعوة على قلبي، ولم يُقهر أحدٌ مثلما قُهرت أنا بموت محمود، كنت أبكي أمام قبره بكاء مريرًا كلما تذكرت إعراضي عنه في أيامه القاسية الأخيرة، وأنني قابلت حسن صنيعه إليّ بسوء ظني فيه!

لأيام طويلة لم أتغيب فيها عن زيارة قبر الراحلين حتى عرفني زائري القبور، وألفها طفلي، فبات ينادي على عمه راغبًا رؤيته كلما جلسنا أمام القبر، كنت أرجو أن يؤنسهما حضوري في موتهما مثلما آنس حضورهما حياتي.

وذات يوم وبينما أنا جالسة إلى جانب القبر، أهذبُ زرعًا كنت قد زرعته مسبقًا للراحلين حتى وجدت كهلًا يتقدم إليّ، لم أعرفه في البداية، إلى أن أمعنت النظر فيه، تخيلوا إنه حماي! والد خالد ومحمود، قد أكلت منه الحياة وشربت، فاحدودب ظهره، ورق عظمه، ووهن عزمه لدرجة أنه بكى بمجرد رؤيته لي، وحملَ صغيري بين يديه فانتزعته منه وهرولت خارجة، لكنه تبعني وظل يتوسل الكلام إلي حتى تعثرت قدماه وجثى على الأرض..!

طلب مني أن أسامحه وأن أغفر له، وأخبرني أن الله قد عاقبه بظلمه إياي بنزع ولديه منه، توسل إليّ أن أعود معه إلى البيت وألّا أحرمه من حفيده، وأن أصله بعدما تقطعت السبل به، أخبرني أنه كان يدبر كل هذا حتى لا يرث طفلي منه، وأنه ف النهاية بات يبحث عني بنفسه ليعطينا حقنا، فما من وارث له الآن غير هذا الطفل..!

أخبرني أن محمود أوصاه علينا قبيل أن يموت، وأنه طالما بحث عنا لينفذ وصية محمود، فما عثر علينا قبل هذه اللحظة.

لم يرق قلبي لبكائه مثلما لم يرق لي قلبه مسبقًا، ها نحن في نفس الموقف، هو يتوسل إليّ جاثيًا على ركبتيه مثلما توسلت إليه جاثيةً على ركبتي ذات يوم ..! في النهاية تركته ومضيت.

وفي نفسي الليلة رأيت كأننا في الجنة، وأن الخلائق كلها تُسَلِمُ على بعضها فرحين بما غفر الله لهم، ورحت أبحث عن خالد ومحمود، حتى وجدتهما فاندفعتُ إليهما لكنهما أعرضا بوجههما عني فبكيت، آذاني فعلهما، ورحت أسألهما عن السبب لكنهما يديران وجههما كلما تكلمت، وينصرفان إلى مكان آخر كلما اقتربت منهما، وبعد جهدٍ أخبرني خالد بأن كل الخلائق اجتمعت بعد تشتتٍ وفرقة إلّا هما لم يجتمعا بأبيهما، فقد حال بينه وبين الجنة ظلمه لي (فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).. أما آن لكِ أن تغفري له لأجلنا فحسب؟!

كررها مرتين فاستيقظت من نومي مرعوبة فزعة، وذهبت إلى حماي، وقبل أن أخبره بالذي جاء بي أخبرني بأن خالد ومحمود قد أخبراه بأنهما توسطا له عندي حتى غفرت له.

انتقلت إلى العيش معه، كان يدلل طفلي تدليلًا عظيمًا، ويحبه حبًّا لم أرَ مثله، كان ينادني بابنتي، وكل ليلةٍ يقسم عليّ أن أسامحه، رغم أنني أقسمت له على ذلك ألف مرة، ظل يخبر الجميع أنني ابنته التي لم ينجبها، ومنحة الله له، وإغداق القدر عليه، والويل لمن يفكر في إيذائي أو الإساءة لي، ظل يتحمل سخافة طفلي، ويتساءل كل يوم كيف حرمت نفسي منه كل هذه السنوات؟!

اليوم توفى حماي، بكيته بقوة، ودعوت له مرارًا كما لم أدعُ لأحد من قبل سوى أبنائه، قبيل أن يموت بلحظات سألني إن كنت قد سامحته فعلًا، فأقسمت له حتى يطمئن، فحاول أن يقبل يدي لولا أنني نزعتها منه، وأخبرته أنني أحبه كما لو أنه أبي وربما أكثر، وطلبت منه أن يبلغ سلامي لأبنائه، ويخبرهم باشتياقي لهم، وعانقته كما لو أنه سيوصل العناق لهما، فقال يا ويل الرجل قدم للمسكينة شرًا فردته له خيرًا، ثم رحل.

* * *

(٢٠)

إلى المشتتين في الأرض..

إلى مَن تقطعت بهم السبل وتفرقت بهم الطرق وأعيتهم الحيل فلم يلتقوا أبدًا، إلى من فقد نصفه فصار يتحرك بلا نصفه الآخر، ومن غادرته روحه فأصبح شريدًا بلا روح،

إلى كل من عانى فابتسم، ومن اعتُدى عليه فصبر، ومن ظُلِم فوكل أمره إلى الله..

إلى المقهورين في الأرض، أصحاب الابتلاءات، الصابرين بغير شيء يدعو إلى الصبر، الصامتين وبداخلهم يركض الكلام، الراضين بالقدر خيره وشره حلوه ومره،

إلى كل بائسٍ يظن بالله خيرًا، وكل مكروب ينتظر فرج اللطيف الخبير، وكل مبتلى يرجو رحمة ربه، ارحم من في الأرض عسى أن يرحمك من بالسماء، وفرج عنهم كرباتهم عسى أن يفرج الله عنك، وأَحسِن إليهم لأن فوق السماوات إله يحب المحسنين....

ذلك اليوم لم أكن ناضجًا بشكل كاف يمكنني من اكتشاف خدعة تلك الشحاذة التي أخبرتني أن أمي تبحث عني، وتريدني على الفور وقد كلفتها بالقيام بذلك.

حينها كنت في السابعة من عمري أستقل قطار الشمال مع أختي التوأم ووالدتي الأرملة التي توفي عنها زوجها وهي بريعان شبابها.

لم تكن أمي قوية بالقدر المطلوب لتقف بمواجهة عمي الوحيد الذي قرر الاستيلاء الكامل على إرث أخيه بما فيه زوجته وأبناءه، لم تكن لتتحمل ذلك، خاصة بعد أن هددتها زوجة عمي بإحراق وجهها إن وافقت على الزواج منه.

لم تكن أمي لتجازف بالبقاء في صعيد مصر، فلم يكن الكوخ الخشبي الذي طردنا إليه عمي يستحق المجازفة!

في فجر ذلك اليوم لملمت أمي حاجياتها، واتجهت بنا إلى المحطة، سنستقل القطار المتجه للعاصمة بالتأكيد القاهرة تتسع لأحزان ثلاثة أفراد آخرين..!

جلست أمي على حقيبة ملابسنا، وأمسكت بصورة فوتوغرافية قديمة تجمعنا بأبي، لم نكن لنهتم بالدموع التي تذرفها أمي وهي تحملق بتفاصيل الصورة الصغيرة، لكن شجاري مع أختي جذبها من بئر ذكرياتها، كل منّا يريد أن يستحوذ على الصورة لأننا قد اشتقنا لأبي وبعد شد وجذب منا قُسمت الصورة إلى نصفين!

وتعالى صراخ الغبية الصغيرة التي لم تكن لتهدأ لأن وجه أبي لم يعد واضحًا، فقد انشطر إلى نصفين، حاولت أمي إسكاتها لكنها لم تفلح فذهبت لتشتري لها الحلوى من بائعي المحطة بعد أن أوصتنا بالانتباه للحقائب حتى تعود.

بعد دقائق ظهرت تلك المرأة التي أخبرتني أن أمي تبحث عني، وتريدني كي أصحبها إلى هنا بعد أن كُسرت قدمها وهي تشتري لنا الحلوى.

لم أكن لأرحل قبل أن أُعانق أختي، وأسترضيها بعد أن تعالى بكاؤها لعلمها بما حدث لأمي، وحتى أثبت لها أنني رجل صغير منحتها نصف الصورة المنشطرة، لكنها ربتت على ظهري بكفيها الصغيرتين، وجففت دموعها بطرف ردائها، ثم صممت أن تمنحني النصفين كاملين، وكاد الحديث أن يطول بيننا فتدخلت الشحاذة قائلة: ليحتفظ كل منكم بنصفه، وهيا لنلحق بأمك قبل أن يأتي القطار!

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها أختي، لا زلت أذكر نظراتها المذعورة تجاهي، وشعرها المشوش، ودموعها الصامتة، وكأنها قد تذكرت للتو أنها تحبني بصرف النظر عن الشجار المندلع بيننا منذ دقائق!

لم أكن لأحول نظري عنها، كنت ألتفت إلى الخلف ملوحًا لها بنصف الصورة، فكانت تبادلني التلويح في بكاء إلى أن اختفت عن ناظري، وذابت في زحام الواقفين، فبكيتُ!

لا أدري ما الذي حدث لها بعد ذلك، وكيف تقبلت أمي الخبر، وماذا عن الحلوى التي أحضرتها للصغيرة، ربما مازالا يتجرعان مرارتها إلى الآن!

ترى هل سافرا إلى القاهرة أصلًا أم أنها عادت إلى عمي كي يساعدها في البحث عن ابن أخيه، مضى أكثر من عشرين عامًا، وأنا لا زلت أحتفظ بالمشهد كما هو، ولا زال يخفيني صوت القطار!

عادت بي المرأة إلى إحدى مدن الصعيد مرة أخرى بعد وجبة تعذيب دسمة جدًّا لأنني حاولت التملص والهرب منها، رغم صغر سني حينها إلَّا أنني كنت ولأول مرة أشعر بالغدر الممزوج بقلة الحيلة والأسى.

وضعتني المرأة في غرفة مظلمة لمدة ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع تحدثت في الهاتف مع أحدهم بشأن بيعي مقابل مبلغًا من المال، وكأنني عبد قد أتت به من سوق النخاسة وستبيعه أيضًا فيها!

في صباح اليوم التالي كنت قد تمكنت من الهرب، واتجهت رأسًا إلى محطة القطار، وباعتقاد طفولي كنت أظن أن والدتي لا زالت تقف تنتظرني هناك، لكنني وجدت محطة أخرى غير التي كنَّا بها، وأناسًا آخرين غير أناس الأمس، فضاقت عليّ الأرض بما رحبت، كل هذا العالم لا يحتوي حزن طفل صغير، ولا يحترم طفولته!

كنت أنظر إلى الصورة الممزقة وأبكي، وأتأمل ملامح أختي الطفولية، وأشعر أنني أنا من أضعتها، ثم أقبل الجزء الظاهر من وجه أبي، وأطلب منه أن يسامحني على ما اقترفت يداي..!

بعد ستة أشهر من التسكع بالطرقات والمبيت بالعراء كقطط الشارع المنبوذة، تكفل بي رجل عقيم يخطو نحو الستين من عمره، عاملني هو وزوجته كأفضل ما يكون، حتى أصبحت طبيبًا محترمًا تجوب شهرته داخل وخارج مصر، لم يتركا سبيلًا للبحث عن أمي وأختي إلَّا وسلكاه لأجل إرضائي وتخفيف مواجعي، لكن باءت كل المحاولات بالفشل، وأحسنا إحسانًا عظيمًا إليَّ فقررت أن أكون مُحسنًا مثلهما ذات يوم.

منذ أسبوع جاءت لعيادتي فتاة ضعيفة يبدو أنها في منتصف العشرينيات برغم الشعرات البيضاء النافرة من حجابها! أخبرتني أنها بحاجة لإجراء جراحة عاجلة، وقد أتت إليّ خصيصًا من القاهرة بعدما أخبرها أهل الخير أن *بالإسكندرية* طبيبًا يجري جراحة مجانية كل *جمعة* تقربًا إلى الله ليحقق له حاجةً في نفسه!

بعد حديث بسيط متبادل أخبرتُها أنها في ضيافتي حتى نجري لها الجراحة وحتى تسترد عافيتها بشكل تام، ثم طلبت منها أن تدعو كثيرًا لي فسألتني أي دعوة أحب، فقلتُ أن يجمعني الله بأختي التي فقدها قديمًا، فبكت هي الأخرى وكأنها فقدت عزيزًا مثلما فقدت أنا!

بعد إجراء الجراحة بيومين أخبرتني أنها لا تملك جنيهًا واحدًا تسد به دينها لي، ثم أمسكت بكيس نقودها لتأكد لي أنه فارغ من المال، فسقطت منه صورة مهترئة لطفل صغير وأمه ورجل آخر لم تظهر ملامحه بشكل كاف لأن أطفالًا صغارًا قد شطراها إلى نصفين قبل أكثر من عشرين عامًا!

* * *

(٢١)

حبيبتي آلاء..

أختي الصغرى، ونصفي الآخر، والوحيدة في هذا العالم التي تربطني بها مشاعر أم،

المقربون مني يقترحون عليَّ أن أوجه رسالة لك، لكنني أعجز عن مجرد التفكير في ذلك، إن وجعك يا حبيبتي، أصعب من مجرد تحويله إلى كلمات، وحزني التام لأجلك لا تليق به كل مفردات اللغة.

حاولت جاهدة التعبير عن كل صاحب مصيبة إلَّا أن مصيبتي فيكِ غير قابلة للتعبير، وكتبت عن كل الذين مست أوجاعهم روحي إلَّا أن وجعك كان أعظم من الكتابة عنه رغم أنه يفتتها كل لحظة، كلما حاولت الكتابة عنك منعني البكاء، وكلما جاهدت كي أشرح للعالم وجعك فأتخفف منه باءت مجاهدتي بالفشل.

يؤلمك المرض فيذبحني أنا، ويؤذيك التعب فيقتلني، وتتأوهين دائمًا فتتحول تأوهاتك إلى خناجر تمزق قلبي، ثم تبكين الألم دموعًا فأقسم أن قلبي يبكي لأجلك دمًا.

أحدثك دائمًا كطفلتي عن الصبر، لكنني لا أجد من يحدثني عنه، وأكلمك عن الرضا لكن قلبي يرضى مرة، ويتملكه اليأس ألف مرة أخرى، أطلبُ من الله الرحيم أن يزيل ألمك لأنني أنا من يتألم، وأسأله لك العافية فيشفى بيتنا كله، وأظن به خيرًا لأنه رب الخير وسيأتينا حتمًا به، فاصبري.

أختك التي تحبك أكثر مما تحب روحها..

سارة*.*

*** * ***

(٢٢)

إلى طفلة صغيرة تستذكر دروسها جاهدة رغبة أن تحقق حلمًا ما، وطفلة مكافحة لا يريضها المجتمع الذي تنشأ فيه فتفكر دائمًا كيف ستغيره عندما تكبر، إلى فتاة تركض بضفيرتين إلى المكتبة كل صباح فتعود مساء محملة بأفكار كثيرة يعجز عقلها الصغير عن إدراك نصفها، وتلتهمها كل ليلة سؤلاتٍ أكبر منها فتعجز وحدها عن الإجابة عنها،

إلى *سارة* الصغيرة أكتب...

إلى معلمٍ أدركَ أن دوره أكبر من أن يكون معلمًا فقط، وأنَّ رسالته أبعد من نشر العلم وحده، وأن واجبه يحتم عليِّه أن يكون أبًا روحيًّا لطلابه، فأصبح مُلهِم صغيرته الأول، فبات يجيب عن كل الأسئلة التي حارت فيها وحدها، ويتناقش في كافة أفكارها التي تعجز عن إدراكها دون مُساعد، ويعدها بتغيير المجتمع معها عندما تكبر..

لكنه مع ذلك رحل قبل أن يفي بوعده، وصمت كلامه قبل أن يجيب عن كل الأسئلة، وينهي نقاش كافة الأفكار...

إلى شاب رحل فجأة في منتصف عشريناته، وإلى طفلة صغيرة أدركت الفقدِ لأول مرة،

إلى روح *محمد عبد الغني صيام*، كان من المجحف أن أكتب كتاب رسائل ولا يكون لك حظًا فيه.

نشأتُ على القراءة منذ الصغر حتى بلغت التاسعة من عمري، فكتبت أول قصة لي عندما كنت طالبة بالصف الرابع الابتدائي، في مدرستي كنتُ فتاةً مشاغبة جدًّا، لا أستقر في مكان محدد، ولا أضع اعتبارًا جيدًا للضوابط في المدرسة أو القوانين، كثيرًا ما أهملت دروسي، وكثيرًا كثيرًا ما تغيبت عن الحصص في سبيل الذهاب إلى المكتبة.

وضع والدتي بالمدرسة سمح لي ببعض الحرية، فكنت أتنقل وقتما أشاء وكيفما أريد، رغم ذلك أعتقد أنني كنت طالبة مجتهدة جدًّا بشهادة المعلمين حتى الآن، في هذا الوقت تحديدًا، تم تعيين معلم جديد بالمدرسة، اسمه *محمد عبد الغني صيام*، وتذكروا هذا الاسم جيدًا.

شاب جميل في منتصف العشرينيات، يشتعل قوة ونشاطًا، يتصرف جادًّا، ويزن كل الأمور بميزان حساس ودقيق، وباعتبار أنه أصغر المعلمين عمرًا فكان أكثرهم شدة وصلابة، أو كما نقول عندنا في مصر *لا يعجبه الحال المايل* ومعلوم أن صاحبتنا هذه حالها مايل جدًّا.

منذ أتى لتعليمنا، كان يسأل عني فيخبره الجميع أنني بالتأكيد في مكتبة المدرسة، فكان يرسل أحد التلاميذ لطلبي منها، وفي كل مرة كان يضربني على يدي، ويسمح لي بالدخول بعد وجبة توبيخ دسمة جدًّا.

في أحد المرات قال لي:

من الواضح أن العقاب لا يجدي معك نفعًا، أخبريني كيف أتعامل معكِ وأجبركِ على حضور الحصص - كما يجب؟.. في هذه اللحظة تحديدًا سقطت ورقة من يدي وسقط معها قلبي على الأرض، وكانت هذه الورقة أغلى ما كتبت!

انحنيت بسرعة لالتقاطها، فطلب مني أن أضعها مكانها فبكيت، سألني بتعجب ما الذي بالورقة؟ فبكيتُ أكثر، التقطها هو، وبدأ يقرأ خطي الأعرج بصوت مسموع * قصة الفرخة كوكي*، ابتسم هو، وضحك جميع الطلاب!

أنهى قراءة القصة، ثم قال وابتسامة جميلة تلوح على ثغره، مَن كَتَبَ هذه؟ فقلت من بين دموعي:

أنا. -

قال في عدم تصديق إن كانت من تأليفك فعلًا فاكتبي أخرى مثلها، والآن!

أمسكتُ بالقلم، لكني لم أستطع كتابة شيء!

قلتُ له: في حقيبتي عشرات القصص كتبتها سابقًا، طلب مني أن أخرجها له، ليقرأها في أثناء كتابتي لقصة جديدة، وإن لم أفعل سيقوم بمنعي تمامًا من دخول المكتبة، وهذا أقصىٰ عقاب يمكن أن تُعاقب به مجنونة بالكتب مثلي.

أمسكت بالقلم مرة أخرى، وكتبت قصة عنوانها، *الفرخة كوكي لن تذهب إلي المكتبة ثانية*!

لا أتذكر أحداث القصة التي كتبتها حين ذاك، لكنني أذكر جيدًا ذلك التأثير الذي رأيته على وجهه وهو يقرأها.

ربت على كتفي في حنان، ثم قال لي لن يمنعك أحد أبدًا من دخول المكتبة، وإن حدث فأرسلي اليّ.

دق جرس الحصة، وجاءت معلمة اللغة العربية، فقال لها في فرحة عارمة وهو يشير إليّ: *تخيلي يا أستاذة ضحى، عندنا هنا في مدرستنا أديبة*!

نظرت إليّ في استهتار، وقالت لو اهتمت بمذاكرتها مثل اهتمامها بالقصص لأصبحت طبيبة، نحن نريدها طبيبة، فاعتبرت قولها هذا تقليلًا من شأني!

في ذلك الوقت، لم أكن أفهم معنى كلمة أديبة، لكنني كنت أعتقد أنها تُطلق على أولئك الذين يكتبون قصصًا ليقرأها الأطفال، وشعرت أن تسلية الأطفال وتربيتهم عن طريق القصص مهنة نبيلة، فأقسمت وعدًا على نفسي أن أكون كذلك.

كان يناقشني في كل ما قرأتهُ أو كتبته من قصص، وكان يقترح عليّ بعضها، وبين يوم وليلة أصبحتُ طالبته المفضلة التي لا يكف عن الحديث معها أو الجلوس إليها، وذلك كان يزيد امتناني للأدب، ويشعرني أنني ما كنت سأحظى عنده بهذه المكانة لولا قراءتي وكتابتي للقصص.

بعد تلك الحادثة بأسابيع قليلة، وفي يوم ممطرٍ عاصف على غير العادة، منعتني أمي من الذهاب للمدرسة خوفًا من الجو المضطرب والمطر المنهمر بالخارج، يومها استيقظتُ على صوت يصيح بمكبرات الصوت قائلًا *توفي إلى رحمة الله تعالى فقيد الشباب محمد عبد الغني صيام*..!

لا أذكر ما الذي شعرت به حينها، لكنني أجزم بأنني سمعت صوت قلبي وهو يتحطم داخل صدري، صرخت كثيرًا، وبكيتُ طويلًا، وشعرت بألم الفراق لأول مرة في حياتي، واعتقدت أن الصحيح هو أن أعتزل الكتابة وفاء لمعلمي الذي أحبه كما لم أحب أحد، وآنس به وكأنه الشخص الوحيد معي على وجه الأرض، وألَّا أخوض حديثًا أدبيًّا أبدًا لأن من كنت أخوض الحديث معه رحل.

وهكذا توقفت تمامًا عن الكتابة والقراءة فقد اغتال القدر ملهمي أو الأب الروحي لي.

ذهب أبي للعزاء، فقد كان والد أستاذي من أقرب أصدقائه، وقصّ علينا قصة موته والحادث الذي تسبب في وفاته لكنني لن أقصه عليكم، يكفينا قلبٌ مكسور واحد.

الآن في نهاية كتابي وددت أن أكتب لكم عن هذا البطل الذي رمى في قلب تلميذته أول بذور الأدب فكان ما كان، فـ سلامٌ ورحمةٌ من الله عليه يومَ وُلِد ويوم مات ويوم يُبعث حيًا.

إلى الطفلة قديمًا، أرجو أن تفخرين بي الآن لأنني حاولت جاهدة ألَّا أخيّب ظن معلمك فيكِ، وألَّا أخذل توقعه عنك، وألَّا أُذهِب جهده معك سدىٰ دون أن يدعو له كل من قرأ لك.

* * *

خاتمة* *

لا بأس..

انهض وحاول الليلة مرة أخرى، ارفع يدك بذات الدعاء الذي دعوت به مرارًا ولم يتحقق، استشعر كل كلمةٍ فيه، ثم ضم إليه أسماء من تحب عسى أن يقال في حقك *ولكَ مثله*.

اطمئن بكلام ربك العظيم، فحين يأتي وقت رِزقك سيُسبّب الله لكَ الأسباب، ويفتح لك الأبواب، فاصبِر وما صبرك إلاّ بالله.

رتل سورة البقرة بتؤدة، سكّن قلقك بالتسليم إلى مولاك، مَلِكّه زمامَ أمرك، واسأله ألاّ يجعلك من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا.

عاهده أن تحاول حتى الرمق الأخير، وأن ترضىٰ لما يحيطك به كرضاء *إسماعيل*، وأن تصبر لقضائه فيك كما صبر *أيوب*، وأن تثق برحمته بك ولطفه عليك كما وثق به في قلب النار *إبراهيم*، سبّحه كتسبيح *يونس* في بطن الحوت، وأحْسِن إلى الناس جميعًا كما أحسن *محمد* إلى أعدائه، واصنع معروفًا لك *موسى*، ثم ردد دائمًا *رَبِّ إني لِمَا أَنزلتَ إِليَّ مِن خير فَقِير*.

هذه الهرولة إلى الله ستشعل بقلبك نورًا ما، حذارِ أن يطفئه في عينيك الواقع الكئيب، وستورثك رضاء بقَدر الله، فحاول جاهدًا أن تضيء طريقك به، واحمده على السراء والضراء حمدًا يبلِّغك مقام *سمع الله لمن حمده*، وهذا مقامٌ شريف شريف فاسأل الكريم العظيم أن يديمه عليك.

قم.. إن أصحاب الرؤىٰ والغايات العظيمة لا ينامون، يستشعرون ما قاله النبي محمد ذات يوم قبل ألف وأربعمئة عام *إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ ولَا يَنَامُ قَلْبِي*، حاول حتى اللحظة الأخيرة، وقاوم حتى الرمق الأخير فإن نجوتَ فاشكره حق شكره، وإن أخفقت فصبِر نفسك بأنك قد سعيت لكن الحكيم الرحيم قدر شيئًا آخرًا، وقد رضيت بحكمته حتى لو لم تدركها، ورأيت رحمته في منعه عنك ما ترغب حتى في عز احتياجك له ورغبتك به، ثم اسأله صادقًا أن يخفف عنك مشقة الرغبة ووحشة الطريق.

تم بحمد الله وتوفيقه..

سارة العقاري

ديسمبر ٢٠٢٢ ٢٠

*****